القسم الثاني
في التطبيق

ويشتمل على الدراسات التالية:

أ ـ في الشعر الإِسلامي المعاصر:

١ ـ الشاعر محمد منلا غزيل ومجموعته «اللؤلؤ المكنون».

٢ ـ مع طاقة الريحان للشاعر محمد منلا غزيل.

٣ ـ مع ديوان «عصر الشهداء» للدكتور نجيب الكيلاني.

٤ ـ مع ديوان «عودة الغائب» للشاعر محمد الحسناوي.

٥ ـ البناء الشعري عند محمد الحسناوي.

٦ ـ مع ديوان «شجون غريب» لأبي عاصم القاري.

ب ـ في القصة الإِسلامية:

١ ـ مع قصة عمر يظهر في القدس لنجيب الكيلاني.

٢ ـ مع روايات إسلامية معارة لنجيب الكيلاني.

٣ ـ إبراهيم عاصي والقصة الإِسلامية.

٤ ـ مع مجموعة «حادثة في شارع الحرية» لإِبراهيم العاصي.

٥ ـ مع المجموعة القصصية «ميلاد جديد» للأخت حنان لحام.

٦ ـ القصة الإِسلامية بين الالتزام والإِعجاب.

في الشعر الإسلامي المعاصر

الشاعر محمد منلا غزيل ومجموعته «اللؤلؤ المكنون»

الشاعر محمد منلا غزيل من أوائل الشعراء المعاصرين في سورية الذين التزموا بمنهج الإِسلام عقيدة وسلوكاً وأدباً، وكرس حياته لذلك، دون أن يبخل براحة أو يضن بجهد، أو يتردد في عطاء.

لهذا نجده مثلاً صادقاً للأدباء الإِسلاميين في هذا العصر.

ولد بمنبج في أواخر سنة ١٩٣٦ م، ودرس فيها حتى نال الشهادة الابتدائية بتفوق، مما أتاح له إتمام دراسته المجانية في ثانوية المأمون بحلب كطالب داخلي، ونال منها الشهادة الإِعدادية سنة ١٩٥٤، ثم أتمَّ دراسته الثانوية، ونال الشهادة المذكورة بتفوق أيضاً، واستطاع إتمام دراسته الجامعية كطالب نظامي في كلية التربية بجامعة دمشق[1] حتى نال شهادة الليسانس في اللغة العربية سنة ١٩٦١ م، ثم نال شهادة الدبلوم العامة سنة ١٩٦٢ م، عمل مدرساً لسنوات، أحيل ـ بعدها ـ على التقاعد لأسباب صحية عام ١٩٦٩ م، وكان منذ صغره طالباً ذكياً، يتقد بالنشاط والحيوية، ويتطلع إلى مستقبل مشرق، ويسعى للتزود بالثقافة، بل كان نهماً للقراءة وزيادة الاطلاع، وكان تأثره واضحاً، من مطالعاته وبعض أساتذته، إذ كان يكب على المطالعة بدار الكتب الوطنية، ويحفظ كثيراً من القرآن الكريم

(١) الطالب النظامي: هو الذي يدرس على حساب الدولة وينال مرتباً بسيطاً أثناء الدراسة، ويكون ملزماً بالعمل عند الدولة ثلاثة أضعاف المدة التي درسها كطالب نظامي.

والأحاديث الشريفة والشعر القديم والحديث، بل تراه يحفظ صفحات طويلة مما أعجب به من كتب مهما كانت موضوعاتها، وأسلوبها.

لقد ظهرت آثار هذه الثقافة الواسعة في شعره المبكر، حيث بدأ ينظم الشعر في سنة ١٩٥١ م، واستهواه آنذاك ما يسمى بالشعر الحر، فنظم على منواله، متأثراً بما قرأه من شعراء المهجر وغيرهم، ومن أكثر الذين تأثر بهم آنذاك من الشعراء: عمر أبو ريشة، وفوزي المعلوف، وفؤاد بليبل، وميخائيل نعيمة.

ولكن إعجابه بهؤلاء لم ينسه قضيته الأساسية والأولى في الحياة، قضية العقيدة. لذلك نراه يرفض المضامين التي تشذ عن منهج الله، واشتهر بشعره الإِسلامي الحار، وديباجته البحترية، وإشراقه الروحي. مع أنه كان لا يزال في الجامعة.

لقد واصل الشاعر عطاءه: شعراً ونثراً. كتب المقطوعة، والقصيدة، والنشيد، وخطب وحاضر، لذا كانت منابر الجامعة تشهد له بالإِعجاب، وأندية حلب ومساجدها ومدارسها، تعرفه محاضراً خطيباً.

صدر له من المجموعات الشعرية ما يلي:

١ ـ في ظل الدعوة.

٢ ـ الصبح القريب.

٣ ـ الله. . . والطاغوت.

٤ ـ اللؤلؤ المكنون. ٥ ـ طاقة الريحان.

٦ ـ ثم صدرت له المجموعة الكاملة لأشعاره.

* * *

ومهما يكن دور شاعرنا، فإنه كان وما زال صوت الشباب المسلم يعبر عن مشاعرهم، ويصور آمالهم، ويتطلع معهم إلى آفاق المستقبل.

لقد هتف باسم الشباب، وترجم عواطفهم وآراءهم في كثير من الأحداث التي مرت بسورية منذ الخمسينات، ومع ذلك فلقد كان ـ كغيره ـ من الأدباء الإسلاميين ـ شعراء وغيرهم ـ منسياً في الدراسات الأدبية التي ترصد الحركة الأدبية في هذا البلد، وحري بالدارسين الإسلاميين أن يقوموا ببعض الواجب، ويبرزوا للجيل كله ـ وليس لأبناء الدعوة الإسلامية فقط ـ صور أدبائنا وشعرائنا الذين كانوا أصدق شعراء الجيل المعاصر، وليس تجاهلهم إلا جزءاً من الحرب المعلنة على الإسلام والمسلمين، وصورة من صور الكيد لدعوة الإسلام، وطمس هوية الأمة جميعها.

وإنني إذ أقدم هذه الخواطر عن بعض شعره، أسأل الله أن يتيح لنا دراسة شعره كله، وأن يهيء كتّاباً صادقين يميطون اللثام عن كثير من الحقائق التي طمسها الغارقون في التبعية[1].

صدرت الطبعة الأولى من ديوان «اللؤلؤ المكنون» في دمشق عام ١٩٦٢ م بحجم صغير، وكان يضم مجموعة مختارة من دواوينه السابقة «طفولة قلب، في ظل الدعوة، الصبح القريب، الله والطاغوت».

وكان الشاعر قد نشر هذه المجموعات الشعرية قبل ذلك، أما مجموعته هذه فقد ضمت ١٢٨ صفحة من القطع الصغير، لكن هذه الصفحات كانت مليئة بالقصائد، إذ طبعت بحرف صغير يتناسب مع حجم الصفحة، وكل صفحة من الصفحات حوت خمسة عشر سطراً في بعض الأحيان.

وبدأ الشاعر مجموعته بالآية الكريمة ﴿**والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، إلا الذين آمنوا**

---

(١) صدرت دراسة عن الشاعر (في ظلال الدعوة ـ محمد منلا غزيل) للأستاذ عبد الله الطنطاوي جزاه الله خيراً، وصدرت أجزاء عدة من كتاب (شعراء الدعوة الإسلامية) للأستاذين حسين أدهم جرار، وأحمد الجدع جزاهما الله خيراً.

وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾[1]. وكأنه بهذا التصدير يعلن التزامه بنهج الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا لله عز وجل، ويرفض أن يكون من الغاوين.

ولذا رأيناه في حياته وسلوكه ـ ولا نزكي على الله أحداً ـ كما رأيناه في شعره وأدبه يصدق الحديث، ويصدق العمل: تمسك بالعقيدة، ورفع راية الحق وجاهر بما يعتقد به من خير، لذا تحمل مشاق الحياة، وذاق مرارتها، وثبت لمحنها، وآثر دوماً رضوان ربه على غوايات الشياطين.

لقد انتصر بفنه وشعره للحق، للإسلام، بينما كان غيره من العجزة في الأدب يسفحون ماء وجوههم على أقدام الظالمين، ليظفروا بالشهرة، ويقتنصوا الشهوة، وينالوا شيئاً من الفتات.

وانتصر بفنه لشباب الإسلام، ورفع صوت الجهاد، ووقف كالليث الهصور يدافع عن هؤلاء الغرباء بشجاعة وثبات، وجرأة وصلت إلى حد المغامرة في كثير من الأحيان.

ولنسمعه يهتف بقصيدته التي جعلها عنوان هذه المختارات «اللؤلؤ المكنون».

يا أيها البغيُ لن تقوى على رَشَدٍ ... في عُمقِ أَعماقِنا البيضاء يحمينا
هيهات يبلغ ظلُّ الزُّورِ قمتنا ... والله ـ جل جلال الله ـ يهدينا
لسنا نمرِّغُ في الأوحالِ فطرتنا ... بل نُكرمُ الحمأ المسنون والطينا

ألا نحس بكبرياء المسلم، وعزة الإيمان في كل كلمة من شعره؟ ألا نرى ثقته بربه، وطمأنينته إلى طريقه؟ ألا نشعر بأنه قمة عالية بين الناس، لأنه

---

(١) سورة الشعراء: الآيات ٢٢٤ ـ ٢٢٧.

آمن بربه واتبع الهدى، ومع ذلك فهو أيضاً عمق عميق في أحاسيسه، وصفاء فسيح رحب عطر في فطرته، لهذا يرى نفسه ـ المسلم أياً كان وكيفما كان ـ أنه الأعلى، والأرذلون الباغون الذين تنكَّبوا عن طريق الله هم الأسفلون، ولن يبلغ الزور ـ بل الزور أتفه من أن يقوم أمام الحق ـ قمة المسلم الشامخة، وصورة الإنسان الوضيئة.

ثم يختار لنا عدداً من قصائد المجموعة الأولى ـ طفولة قلب «التي كانت تصور مرحلة مبكرة من حياته بما فيها من عواطف لمّا تنضج بعد، وذكريات ندية محببة من الطفولة والصبا، قبل أن يبلغ فؤاده الرشد، ويصل إلى النضج والوعي» حيث يقول عن هذه المرحلة:

مَزَّقْتُها ذكرياتُ الأمس وانْدَثَرَتْ «طفولةُ القلب» في دوامةِ الندمِ
كرَّاسةُ الشعر ـ شعر الأمسِ ـمِنْ غزلي بين الرمادِ طوَتْها جذوةُ الضَّرمِ

ولم يكن صنيع شاعرنا استهتاراً بالفن، وإنما التزاماً وتسديداً وتكريماً، لأن الأدب والفن مسؤولية والتزام أمام الله سبحانه وتعالى، ثم أمام الناس، وحين يخلو الأدب من روح المسؤولية، فينثر الأديب ما يهوى، ويعلن نفثات الشيطان، وغوايات النفس، دون اكتراث بالأمانة، يتحول إلى هدم ومكيدة للإنسان نفسه.

إن لحظات الضعف، وحالات السقوط، ومناظر الشذوذ والتردي، ليست صورة إنسانية قويمة، إنها شذوذ وكفى، فلماذا لا يترك بعض الأدباء للقراء إلا صور الشذوذ والسقوط، ومشاعر الأوهام، أليس ذلك استخفافاً بالإنسان، وبكرامته، وعبثاً بأمنه وطمأنينته، وإهانة لشرف الناس وطعناً بأخلاقهم؟ فضلاً عن أنه اعتداء على عقائدهم. إن مثل هذا الأدب الخالي من المسؤولية، ألهيات وعبث، ومعاول هدم وتخريب وإفساد، أما شاعرنا فإنه يعبر عن نضج المشاعر، واستقامة الفطرة، فيقول:

واليومَ أحلى أغاريدي وأَعذَبُها ما زفَّهُ ملهمُ الإيمانِ والشممِ

يا أيها القلب فاستمسكْ بعروتِهِ لقد حظيت بحبلِ الله فاعتصمِ[1]

* * *

وقارىء شعره يحس من اللحظة الأولى بلهفة الشاعر للمجهول، وشوقه لما يحمله الغيب، لأن المسلم مطمئن لما يأتي من عند الله، لذلك نراه يعبر عن الأمل المحجوب بستار الغد والانتظار الشائق المحرق أحياناً، بل والمرارة والحرمان من الواقع أيضاً.

وهذه اللهفة الحارة الحزينة، سترافق شاعرنا في «طفولة القلب» وفي بقية مراحل شعره، ولكنها كانت لهفة شاعر شاب، لهفة ذاتية في «طفولة قلب» ثم أصبحت لهفة جيل مؤمن يتطلع لارتياد آفاق رحبة من الخير والعدل والحرية والكرامة في ظل العقيدة.

ولنسمع إلى هذا الهمس العذب، لنفس ملهوفة تتطلع للغد، وتنتظر الأمل، ولا تخشى من الألم ما دام في سبيل ذلك النور:

يـــا حبيبـــي، ذاب قلبـــي وارتمـــت أوراقُ زهـــري
كمـــا أدنيـــت كـــي يحظـــى ببعـــض الـــزاد صـــدري
أَطْعَمَتْنـــي الآهُ جمـــراً أشعلَـــتْ نبـــراسَ عمـــري
فـــارتمَـــتْ أوراقُ نفســـي شعلـــةً تـــذكـــو بشعـــري[2]

وتظل اللهفة مع تطلعه المرتقب لمأمول الغد ترافقه، إنه حنين يحث الشاعر دوماً إلى أمل عذب:

ويظـــل للمجهـــول فـــي صـــدري حنيـــن مُبهَـــمُ
يقتـــاتُ منـــه غنـــاءه قلـــبٌ حـــزيـــنٌ ملهَـــمُ[3]

* * *

(١) طفولة قلب ص ٧ من اللؤلؤ المكنون.
(٢) من قصيدة ظلال ص ٩ من المصدر السابق.
(٣) قصيدة حكايات ص ١٣

ينقلنا الشاعر بعدها إلى القلب الرشيد، بطبيعته الصافية التي تحاكي صفاء الطفولة، مع حيوية الشباب، وحرارة الإيمان.

ولكي ندرك طبيعة الرؤية التي ينظر من خلالها إلى رسالة الشعر، وإلى الحياة، يُصدِّر هذه المجموعة بفقرةٍ من «ظلال القرآن» لسيد قطب رحمه الله: «القلب المؤمن يدرك قيمة الاهتداء بعد الضلال، قيمة الرؤية الواضحة بعد الغبش، قيمة الاستقامة على الدرب بعد الحيرة، قيمة الطمأنينة للحق بعد الأرجحة، قيمة التحرر من العبودية للعبيد، بالعبودية لله وحده»[1].

والإيمان نور غامر يفيض بلا نهاية، وفسحة ظليلة تمتد بلا حدود، ورؤية واضحة متجددة مع الزمن، وطمأنينة مؤنسة بلا ملل، إنه يصل بين الإنسان المؤمن والحياة بوشائج الفطرة التي لا تنبتّ ولا تضعف، بعد أن يصل بين الإنسان المخلوق وخالقه الكريم.

لهذا شب القلب «الطفل» في عمر الإيمان، وانتفض شهماً ذكياً متمرداً، يجاهد بسلاح الكلمة المؤمنة، والموقف الشجاع:

النـورُ فـاضَ علـى الفـؤادِ الطِّفْـلِ جيَّـاشـاً سخيـاً
وتضـوَّعَ الأرجُ الشـذيُّ علـى الـذرى ثـراً نـديـاً
ولمستُ في الأعماق جرساً مُترعَ الإيقاع دفّاقاً شهياً
وتنـاثـر النغـمُ الأغـنُّ علـى الـرُّبـى شعـراً شجيـاً
سـأظـل يلهمنـي اليقيـنُ بخـالقـي... مـا دمـتُ حيـاً

وهذا هو الفرق بين شعر الشباب التائه، أو شعر الشاعر الغوي[2] وشعر المؤمن المستقيم.

---

(١) ص ٥١ من المصدر السابق.
(٢) ص ١٧

هناك عبث باسم الفن، وضلال باسم الرؤية، وإفساد باسم الحرية، وظلم باسم العدالة.

وهنا التزام باسم العقيدة، وهدى باسم الدين، وخير باسم الإِسلام وعدل وكرامة باسم الإِنسان.

إنه وضوح الرؤية، واستقامة الخطى، ورحابة النظر، وعمق الشعور وتقدير المسؤولية، وصدق التعبير، وأمانة الحياة.

وشاعرنا المؤمن يمثل هذا الخط الإِسلامي بصدق بالغ، وإن لم يبلغ في شعره بعد مرحلة النضج الكامل، لكنه ما زال على الطريق صافي النغمات، صادق العبارات، واضح الفكرة، مشرق الديباجة.

إنه كان رائد الحداة من الشباب على درب طويل، يحث الخطى، ويرتاد الآفاق العطشى لشباب الإيمان، ودوماً نراه يصعد لأن يشتاق إلى رؤى لا تدرك إلا بالتعب، رؤى تمتد من الحياة ولا تنتهي في الآخرة، بل هي النعيم الخالد.

لقد رأيناه يشتد عوده، ويصلب بنيان فنه وشعره، وهو بالغ ـ إن شاء الله ـ ذلك المرتقى العظيم في الشعر، ما دامت كوامن الفن ثرة دفاقة في حسه ونفسه وشعره، وما دامت مطامح فكره متوثبة ظمأى تتطلع إلى تجدد واستمرار، وما دام التصور الإيماني واضح راسخ في أعماقه.

النـــورُ فـــاضَ علـــى الحنـــايـــا والقلـــوبِ المظلمـــة
وهـــدايـــةُ اللَّـــهِ الـــرحيـــم تمـــسُّ روحـــاً ملهمـــة[1]

وفي هذه القصائد كان يمثل طاقة من إحساس صادق مرهف، يَدِقُّ ويتناهى في الدقة مع سريان الزمان، حتى تخاله ـ أحياناً ـ طاقة ملتهبة تحس لهيب نارها، وضياء نورها، وينبعث ذلك من فطرة صادقة، وروح شفافة

(١) ص ١٧

تتعلق دوماً ببارئها، وتخافه، وتطمع في مرضاته، عبر ظلمات الدرب ومخاوف الطريق، من خلال جهاد طويل.

إنه يحس بشباب الإسلام يتلهفون للحداء الصادق، فيتقدم ليكون ذلك الحادي، ينظر بعيونهم، ويفكر بقلوبهم، ويشعر بأفكارهم، والجهاد القائم على الإيمان هو الذي يسري مع الدم في هذا الجسد الفاني، ويمثل الروح الطليقة المشرقة بهدي رسول الله ﷺ فتزداد يقيناً وقوة. ولذا يرى شاعرنا أن ليل الظالمين زائل، وعهد الظلام متبدد، ومشرق الفجر قريب.

بجهـادِنـا، بـالحـقِّ بـالإيمـانِ يسـري فـي الـدَّمِ
بـالـروح تـزخـر بـالسنـا، وهـدى النبـي الأعظـم
سيـزولُ ليـلُ الظـالميـنَ، وليـلُ بغـيٍ مُجـرم
وسيشـرقُ الفجـرُ المبيـن، ويـرتـوي القلـبُ الظَّمِـي[1]

أما مسيرة الدعوة فستظل مستمرة، وشريعة الله هي الأعلى. ويزداد أمل المؤمنين بالفوز:

أنـا مـؤمـن بـالنصـر لـلإسـلام، للنهـج السـوي الأقـوم
أنا مؤمن بالفوز للإيمان، للزحف الأبيِّ المسلم[2]

والإيمان الذي ينتصر ليس الكلمات التي تقال، إنما هو طاقة معطاءة، وفجر متدفق، مواكب أرواح متآلفة في ظل الله، وكتائب جهاد ماضية بعزم في سبيل الله، وعندها تنهار السجف والحواجز، ويعلو الحق في كل الأرجاء:

الفجرُ يومضُ ـ يا أخا الإيمان ـ من خلفِ السَّجائِفْ
بـالـوهـجِ، بـالإشعـاع، زخّـارُ الكتـائـب وهـوَ زاحـفْ

(١) من قصيدة «إيمان» ص ١٨.
(٢) المصدر السابق.

والصبح يُومِىءُ بالوضاء الشم، مشرقَةُ الصحائف
بمـواكـبِ الأرواح وحَّـدهـا التـآلـفُ والتعـارف
بـأخـوَّةِ الإيمـان تهـزأُ بـالهـواجـس والمخـاوف
ربطَـت بـأوثـقِ عـروةٍ أعمـاقَهـا شعـلُ المصـاحـف
والـدربُ محفـوفٌ بـأشـواكِ الطغـاة وبـالعـواصـف[1]

ثم يستعرض الشاعر كثيراً من صور الانحراف: في الاعتقادِ والتفكير والدعوات لإفساد الجيل وإضلال الأمة عن طريقها الصحيح، ويستشهد بوقائع من تاريخنا المعاصر، الذي حفظ للمؤمنين أروع المشاهد في محاربة الاستعمار، والقضاء على الطغيان، وقيادة الناس للحرية:

جـزائـرُنـا مجـاهـدةٌ وفـي أوراس تحـريـرُ
يـدوِّي فـي الـذُّرى الشـمِّ بصـوتِ الحـق تكبيـرُ
تكـافـحُ دونَ عِـزَّتهـا وجيـشُ الكفـر مسعـورُ
صليبـيٌّ تحـركُـه سخـافـاتٌ وتبشيـر
وشعبـي صـابـرٌ يَقِـظٌ علـى الإيمـانِ مفطـور
يـدافـعُ عـن عقيـدتـه عـن الإسـلامِ جمهـورُ[2]

ويطل صوت الإسلام عالياً، لا صوت شاعر فرد، بل صوت أمة مؤمنة، وشبابٍ عَمَرَتْ قلوبهم آيات الإيمان، يمضون أقوياء لرفع راية الحق، وتحرير الأمة، وتحكيم الكتاب.

للَّـهِ قـافلـةُ الكفـاحِ تسيـرُ نحـو الانقـلابِ
لله ركـبُ الدعـوة السمحـاء وهّـاجُ الشهـابِ
للَّـه قـافلـة العقيـدة، والأخـوة، والشبـابِ
يسعـى، يحفّـزهـا التـوثـبُ نحـو تحكيـم الكتـاب[3]

(١) المصدر السابق ـ قصيدة الفجر ص ١٩.
(٢) من قصيدة إشراق ٢٥ ـ ٢٧.
(٣) المصدر السابق.

والجموع المؤمنة، واضحة الفكرة، ثابتة الخطى، قوية الحجة، لا ترهب صولة البغي، ولا يتعبها السير الطويل:

ستخوضُها، منهاجُها القرآنُ هاتيكَ الملايين الأصيله
ستخوضها، وستهزمُ الكفارَ والقيمَ الدخيله
ويدوسُ موكبُها الرهيب هوى الطواغيتِ الذليله[1]

وهكذا تظل أنسام الإيمان، وروح الجهاد، وبُشرياتُ الأمل العذب مهيمنة على قصائده كلها في المجموعة الأولى وغيرها من مجموعات هذا الديوان.

* * *

وحين نطالع قصائده في مجموعة الصبح القريب، نرى هذا العزم المتوثب تصوره لنا كل القصائد، بل يبدو في كل بيت أيضاً:

بجهادنا سنفتت الصخرا ونمزق الطاغوت والكفرا
بعزمة جبارة كبرى وإرادة لا تعرف القهرا
ونُجنِّد الوجدان والفكرا بدمائنا سنلوِّن الفجرا
ونَرُودُهُ يا أمتي نصرا بِكفاحنا سنحوِّل المجرى[2]

فالجهاد المستمر، والعزيمة الراسخة، والإرادة الصلبة والوجدان الحي، والفكرة الواضحة، والتضحيات المستمرة، والكفاح بالقلب والقلم والدم، بكل هذا سوف نفجر نور الصبح الجديد المرتقب.

أليس الجهاد هو طريق العقيدة والدعوة؟ أليست هذه هداية الرحمن أيضاً؟

فإذا حالت الأشواك دون استمرار الطريق، يهتف شاعرنا بإخوته قائلاً:

يا إخوتي: البغي لن يقوى على تفتيت صخرتنا المنيعة

(١) المصدر السابق من قصيدة القافلة ص ٢٩.
(٢) ص ٢٤.

يا إخوتي: لن يستطيع الزيف والبهتان إذلال الطليعه

هذا الإحساس لدى الشاعر بمعنى الجماعة، معنى الكل الواحد المتآخي المؤمن، ومعنى الأمة المسلمة المتراصة، يلازم روح القصائد كلها أيضاً، بل يسري فيها سريان الدم في الجسد.

فهو ـ دوماً ـ لم يهتف بلسانه كفرد، ولم ينشد باسم شاعر واحد، وإنما كان شعره هتاف المجموع ـ ونداء الجيل ـ والتعبير عن عقيدة الحياة.

وحين قامت الوحدة بين سورية ومصر سنة ١٩٥٨ م، كان شاعرنا صوت الإيمان في الأندية والحفلات، يهتف للوحدة، ويريدها أن تكون وحدة العقيدة، ووحدة الإيمان الذي يربط بين القلوب كما يحقق المصالح، وكان يوضح أن العقيدة ـ وحدها ـ هي التي أزالت الحواجز والحدود، وقربت بين الناس، ووحدت الأمة.

فإذا هتف للوحدة، وفرح للتقارب، فلأنه يريدها في ظل الإيمان وعلى هدى الإسلام:

قلْ للحواجزِ أنْ تزولَ فقدْ مضى عهدُ الحدودِ
قل للحواجز: قد مضى التيَّار يعصفُ بالسدودِ
يجتاحُ ما صنع العِدَى بين الديار من القيودِ
فإذا الكنانةُ والشآم بموجة الحدث الوليدِ
غمرٌ تفجَّر بالكفاحِ المستميتِ وبالجنودِ[1]
. . . . . .
فاسمعْ هتافَ الشعبِ يعلو: يا حواجزُ لن تعودي
والوحدةُ الكبرى ـ بعونِ الله ـ تولَدُ من جديد[2]

(١) قصيدة الوحدة ص ٣٧
(٢) المصدر السابق.

ولم يلهه الأمل الوحيد عن الغاية الكبرى، ولم يخدِّرْهُ الحدث الجديد عن المطلب الأبعد، ففي ظل الله، وبعونه ستولد وحدة الأمة المسلمة كلها من جديد وتعلو رايات النصر والإيمان.

وإن أمة أكرمها الله بالرسالة السماوية، وحملها الأمانة حري بها أن تنهض بدورها، لقيادة البشرية من جديد بما عندها من رسالة السماء. وحريٌ بها أن تمسك بزمام المستقبل بعد أن تنهض من عثراتها، وتقوم من كبوتها، وتحرر نفسها من كل عبودية لغير الله العلي القدير، وتعلن بقوة المؤمن: «لا صلح، ولا تقسيم، ولا تدويل» فالأرض أرضنا، والجهاد طريقنا، والشهادة في سبيل الله أحلى أمانينا.

كفكفْ دموعك ـ يا أخا الإيمان ـ في القدس الشهيد
فلقد توثَّبَتِ الشعوب لسحق شذاذ اليهود
. . . . . .
فاسمع معي صوت الجماهير الأَبِيَّة كالرعود:
لا «صلح» لا «تقسيم» لا «تدويل» في أرض الجدود
بل جولة أخرى تدك المعتدي بلظى الحديد[1]

وحين تعود الأمة إلى عقيدتها، وتهتدي بنور ربها، تصل إلى وحدة متلاحمة، تحميها روح الإيمان والجهاد، وتدك معاقل العدوان مهما تعاظم، ويرعاها رب عزيز جبار لأنه تكفل بنصر عباده المؤمنين.

الوحدة الكبرى بأعماقي حنين يوقدُ
من جذوة مبثوثة الأضواء يقبسها الغدُ
من شعلة الأمس العظيم بوقدة لا تنفدُ

---

(١) ص ٣٧ ـ ٣٨. ووأسفا على ظلام الواقع، فها هي الدول العربية تفاوض وتصالح وتقسم فلسطين وغير فلسطين، لتكريس الاحتلال، وسيطرة أعداء الله على مصالح المسلمين.

ويـوجّـه الـركـب العتـيَّ ـ إلـى الجهـاد ـ محمـدُ
فـإذا المـواكـب والـزحـوف عقيـدة تتجسـدُ
وإذا جمـاهيـر الشعـوب عـزيمـة تتمـردُ
فتـدك صـرح عـدوِّهـا، ويـزلـزل المستعبـدُ[1]

وحين تكون وحدة الأمة على أساس العقيدة، يتحقق النصر وتزول الفرقة:

هدي الرسول ـ رسول الله ـ لقننا أن الهزيمة ليست من سجايانا[2]

ومن أجل النصر لا بد من رأب الصدع وتحرير النفس والفكر والأرض والتمسك بالعقيدة:

نحـرر الأرض مـن أغـلال تَجْـزِئَـةٍ تمـزِّقُ الـدار أقطـاراً وأوطـانـا
نحـرر الفكـر مـن أغـلال مهـزلـة ورِدَّةٍ مـا لهـا إلا سـرايـانـا
نحكِّـم الشـرع منهـاجـاً لأمتنـا ونحمل المشعل الوقاد فرقانا[3]

وهل هناك طريق غير هذا يحقق التحرير الحقيقي، والوحدة الحقيقية؟

ألم تبرهن لنا الأحداث أن كل طريق غير طريق الإِسلام خائب في عالمنا؟

ألم يتحمل الشعب المسلم أقسى ألوان التعذيب والإِهانة على يد الناعقين من حملة المذاهب الوضعية؟

ثم يحيِّي في قصيدة أخرى ثورة الجزائر التي كانت من صنع الإِسلام والإِيمان:

يـا ثـورة حـرة أذكـت حمـاستنـا وأشعلت من لهيب القلب أشعارا

---

(١) المصدر السابق.
(٢) ص ٤٠ ـ ٤١
(٣) المصدر السابق.

مـا زال هـدي رسـول الله مشعلنـا فجـراً سنيّـاً يـزفّ النـور فـوارا
جند العقيدة ما زالت سواعدنا تلوي الأعاصير، إعصاراً فإعصارا[1]

وينادي هذا الشعب ليواصل الجهاد:

ضرجوها، ضرجوا الراية بالدفَّاقِ من قلب الجراح
واغمسـوهـا فـي اللظـى الألاق فـي وهـج الصبـاح
أشعلـوهـا فـي ذرى أوراسنـا الشـم الفسـاح[2]

هذا القلب الذي يذوب حنيناً للجهاد في الأوراس، هو الذي نراه في قلب المجتمع يعاني مرارة العيش فيصبر، ويقاسي جفوة الأيام فيتأسى، ويرى ألوان النفاق والفساد فيحذر، وفي كل حال يزداد ثباتاً ومضاء على الحق ويقيناً بالنصر:

فيض الشعور يجيش في أعماق أعماق الفؤاد توهجا
وسرادق الظلمات والديجور يا أختاه يحضن منبجا[3]
. . . . . .
أختـاه! تبـاً للنفـاق إذا تبـدى، أو تعـرى أهـوجـا
أختـاه! بئـس الانقيـاد المستكيـن يلـوح لـي متبـرجـا[4]

ويطالع أحداث التاريخ فيرى الصحراء الظمأى الجافية، لا تحتضن غير شارد أو غريب، أو عصبة منبتة، ثم تُغرس الصحراء ببذار الفكرة الإلهية فتنبت نباتاً طيباً، وتزهر بالخير، وتثمر: بطولة فذة، وتمتد إليها الأيدي الحانية لتفجر فيها ينابيع الخير والعدل، فتموج ـ بعد قحط ـ بالخير للإنسانية، ويمتلك ابن الصحراء الجافي ناصية الزمن.

---

(١) من قصيدة تحية ص ٥١ ـ ٥٣.
(٢) من قصيدة الراية ص ٥٤.
(٣) منبج: بلدة الشاعر وهي في شمال سورية.
(٤) من قصيدة حنين ص ٥٦.

مَنْ فعل هذه الأعاجيب، وَمَنْ زرعَ هذه الأشجار؟

إنها سنة الله حين تستسلم النفوس إلى بارئها طائعة، وتحمل شريعة الله صادقة.

الرجال هم الرجال، لكنهم شربوا ماء الحياة، غرسوا ونبتوا نباتاً جديداً، فأصبحوا رجالاً تبزع الشمس من جباههم، ويرتاح القمر على نواظرهم، ويحتكم الناس إلى حكمتهم.

بطـــولـــة ثـــرةُ التسكـــاب معطـــاء
جـــادت بهـــا فـــي سبيـــل الله صحـــراء
وخضلتهـــا مـــن الإيمـــان نعمـــاء
وشعلـــة مـــن هـــدى الفـــرقـــان غـــرّاء
وعـــزة مـــن سجـــايـــا الـــركـــب شمـــاء
فـــالـــركـــب تكبيـــرة تعلـــو ولألاء
وجحفـــل كـــانطـــلاق السيـــل مضّـــاء
ومشعـــل يـــوقـــد التحـــريـــر وضـــاء[1]

هذه الأمة، أمة العقيدة، تظل البطولة تتجدد في أبنائها، وهي جديرة بالنهوض مرة أخرى، فلتحملْ مشعلَ العقيدة من جديد لكي تنهض، فما زالت أمجاد الماضي تأتلق، وعبير العقيدة حياة تنعش القلوب:

يـــا أمتـــي!.. لـــم تـــزل فـــي الـــدرب تـــأتلـــقُ
تلـــك البطـــولـــةُ فـــي أعمـــاقِهـــا القلـــق
تحـــدو بـــأجيـــالنـــا فـــي قلبهـــا حُـــرَقُ
أن جَـــدِّدوا ثـــورة الأمجـــاد وانطلقـــوا
بـــالصـــدق، قـــد فـــاز بـــالمضمـــار مـــن صـــدقـــوا

(١) من قصيدة بطولة ص ٥٧.

وحطِّمـــــوا الإِصـــــر والأغـــــلال وانْعتِقـــــوا[1]

وحين يحتدم الصراع في المجتمع بين الحق والباطل، ويقف الإِنسان على مفترق الطريق، لا يفوز في المعركة إلا المؤمنون الصادقون:

يــا للــوجــود، ويــا لإِنسان الوجود بساحِهِ
أبــداً يخــوض غمــاره بصــلاحــه وطــلاحِــهِ
فـالتيـه يـزخـر بـالقطيـع عبيـــده وفـــلاحـــه
. . . .
والــدرب؛ درب جهــادنــا يــزهــو بجنــد بطــاحــه
الصــابــريــن. . . الصــابــرات علــى عنــاء كفــاحــه[2]

ويبقى الصراع، في مد وجزر، وعلو وانخفاض، بين موج الطغيان وصبح الإِيمان، ولكن الفوز في النهاية للفجر الغامر، والصبح القريب:

المــوج فــي تصخــابــه، والصبــح يــومــض بــالشعــاع
متــأججــاً بــوميضــه، وممــزِّقــاً ليــل الضيــاع
يستــأصــل الظلمــات والــديجــور فــي درب الصــراع[3]

وفي قصيدة «العباب» يصور الخضم الزاهر لهذه الأمة بما يحمله من صعاب وعقبات تحول دون تحقيق الآمال العظيمة، ومع هذا فالمؤمن ـ كما يقول الشاعر ـ يعزم عزمة الإِيمان بخوض الصعاب في ظل العقيدة، ويمضي لنيل الآمال الحبيبة للأمة المسلمة:

هــذا العبــاب علــى ضــراوة غمــره سنخــوضــه قــدمــاً إلــى أصبــاحنــا
سنخـــوضـــه بعقيـــدة وعـــزيمـــة ينـدى بـوثبتهـا لهيـب جـراحنـا[4]

---

(١) من قصيدة بطولة ٥٧ ـ ٦٢.
(٢) من قصيدة غراء ٦٣.
(٣) من قصيدة أمواج ٦٥ ـ ٦٦.
(٤) من قصيدة العباب ص ٦٧.

وعندها سيلتقي مشرق الوطن العربي مع مغربه بعد تحطيم الدخلاء والقضاء على الطغيان.

* * *

وفي قصيدة الصبح، ذلك الأمل المنتصر في ليل الظلمات، نرى وسوسات النفس، وأمامها الصعاب التي تحول دون هذا الفجر، ومع ذلك يندفع الشباب بقوة الإيمان، وقوة اليقين لمواصلة الكفاح:

ماذا وراء الوهج والإشعاع من سر غريب؟
هل يجرؤ النور الصريع على الدجى العاتي الرهيب
هيهات، لن يقوى الرماد على عطاءٍ من لهيب
هيهات... وانحطم العتاة بوطأة القدر العجيب
فتزلزل الليل الطويل بحرقة الجرح الخضيب
وتألق الفجر الوضيء وشعلة الصبح القريب
وتمزق الديجور محترقاً بإيمان الشعوب

والعقيدة لا تنبت غير الشباب المجاهد، ذي العزيمة والمضاء، وهو الذي يحطم الطواغيت، ويرفع بناء الحق:

الله أكبر هزت العربيَّ فانطلقت زحوفُهْ
عبر الزمان تشق وجهتها تظللها سيوفه
تقفو هدى الفرقان، تهديها إلى الحسنى حروفه[1]

وهذه الصيحة التي تمثلت بالرجال المؤمنين، وبالمجتمع المسلم، هي التي أحالت رمال الصحراء إلى تربة الحضارة الخيّرة، وأطلقت العربي المستعبد لحفنة من الطين، أو لطاغوت من طواغيت الأرض ليحمل رسالة البشر، ويهدي لهم حريتهم، حتى صار بهذا النداء، من أمة الخير التي تأمر

(١) من قصيدة الصبح ٧٢.

بالمعروف وتنهى عن المنكر، وصار بهذا النداء فاتحاً وعالماً، وحاكماً عادلاً، والْتَأَمَتْ فطرته مع الكون وتناسقت مع الحياة، وتآلفت مع الإنسانية.

والصعاب لن تختفي، لأن الشيطان قد آلى على نفسه إضلال بني آدم، وفي يديه وسائل ومغريات وشهوات، وله جنود وأتباع ودول وجيوش. وهذه سنة الحياة في الصراع بين الخير والشر وبين الإنسان والشيطان، وسيظل قائماً حتى ينهمر ضوء النهار فيذهب غثاء الأرض، وينبت الثمر:

لـن يستطيـع البغـيُ هـدمَ مـؤثَّـلٍ ... مـن مجـدنـا سنهـدُّه بمـؤثَّـلِ
جنـدُ العقيـدة والجهـاد، ودربُنـا ... درب الصحـابـة والـرعيـل الأولِ
و «محمـد» شـق السبيـل أمـامنـا ... بهـدى الرسـالـة والكتـاب المنـزلِ

ومن خلال هذه المجموعة نرى الشاعر يصور الصراع اللاهب بين دعاة الخير ودعاة الشر، بين حملة العقيدة والمارقين الذين يكيدون لأبناء هذه الأمة..

ويحرص شاعرنا دوماً على التزام الإسلام فكراً وعاطفة وسلوكاً فلا يقنط ولا ييأس، بل نراه واثقاً من ربه، كأنما ينظر بعينيه إلى وعد الله بالنصر.

أمل العذب قريب، والغاية الوضيئة دانية، والطريق مهما طالت ستنتهي، ما دام القائد هو الذي يقود ركب الإيمان، وهو الذي يحمل رسالة السماء، محمد ﷺ.

فالصبح والنهار، والفجر، والعزم، والشوق، والمجد، والوهج، والإشعاع، والنور، والقبس، والرؤى، هذه الكلمات التي تتردد كثيراً عند الشاعر، تعبر عن إحساس المسلم وثقته وأمله وثباته في طريقه الطويل وجهاده المتواصل.

ونقيض ذلك عند الشاعر: الليل والظلام، وما شابه ذلك يعبر بها عن الشر والطغيان، وصعاب الطريق.

وبين الخير والشر صراع أبدي حتى يتحقق وعد الله بالنصر ويثبت الإيمان.

* * *

ثم نصل إلى مختارات شاعرنا من المجموعة الأخيرة «الله والطاغوت» فلا نكاد نخرج عن المضامين الأولى لهذه المختارات، لأنها تعبرعن مسيرة الدعوة وجهاد الدعاة للباطل في النفس والمجتمع، في البيت والدولة، ولا بد للمسلم من الصبر، والشجاعة والتضحية ورسوخ الإيمان أمام المغريات والمخوفات. وهنا نراه ينتقل بين صور مختلفة من المجتمع، ويصور لنا الآمال بصور مختلفة، ومن خلال صوره هذه وتلك تبدو حقيقة الصراع المستمرة بين أولياء الله وبين الطاغوت في الأرض. والمسلم في قلب هذه المعركة مُبْصِرُ القلب، مفتوحُ العينين، متوقِّد الحس.

وها هو الشاعر يخاطب الحرفَ التائه والعقل الضَّال ليبصرَ الحق رائعاً في الكون، ويكف عن التزييف والخداع.

يـا حـرف! يـا أعمـى الفـؤاد، إلام تسجـدُ لِلْـوثَـنْ؟
وإلام يخـدعُـك الطِّـلاء بـزخـرف زاهٍ حَسَـن؟
هـلا انعتقْـتَ مـن الإسـار، مـن الضيـاع، مـن الـوهـن؟
هـلا انطلقـت إلـى الصـراع، تـرودُ واضحـة السنـن؟[1]

أما الدور الحقيقي للحرف، والرسالة الحقيقية للكلمة، أن يلتزم بالحق ويسعى للخير، ويحمل مسؤولية الإنسان.

ثم يصور الذين ضلوا على علم، فسخروا أقلامهم للشر، وانحرفوا بغية الإفساد، واستهوتهم الحياة الدنيا، واستجابوا لإغراءات الشيطان وأتباعه من الهالكين:

---

(١) من قصيدة عينان مطفأتان ٨١ ـ ٨٢.

العُمْـيُ: عميـان القلـوب الضـائعـون بـلا كيـان
والمبصـرون بنـور أفئـدةٍ... لهـم يعنـو الـزمـان

ودعوة الحق: تبقى وتصمد شوكة في حلوق الحاقدين، وأرقاً دائماً للعملاء، لهذا نراهم ـ دوماً ـ ينظرون إليها بحقد، ويكيدون لها بالخفاء والعلن، ولكنها تبقى صامدة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، إنها غرسة الرحمن في أرض الفطرة الصالحة، ولذلك فإن ثمرها يكون خيراً للبشرية وسعادة للناس، وهي في نمو وازدياد، ما دام الإخلاص، وما دامت الاستقامة، إنها كالصخرة الشماء التي تتحطم عليها الأمواج، وتتكسر الرياح، أمام الأعداء.

الصخـرة الشمـاء سـامقـة الـذرى والطـود رأس شـامـخ البنيـان
والنـاطحـون تحطمـت أهـواؤهـم ذهبـت جفـاء نفثـة الثعبـان
زبد الضغينة قد تلاشى وارتمى مِـزقـاً علـى الأسـوار والجـدران
والغـرسـة المعطـاء يصعـد فـرعهـا يسمـو عتيـاً وارف الأفنـان
تـؤتـي بـإذن الله طِيـبَ ثمـارهـا والعـود يقـوى والقطـوف دوان
وجذورُها بين الضلوع تشابكت وتعـانقـت فـي بـؤرة الـوجـدان
لله أصـلٌ ثـابـت وغصـونـه عنـد السمـاء بفـرعهـا الفينـان[1]

وبعد أن يجوس الشاعر وسط الواقع المؤلم، يمضي إلى حقول التاريخ الإسلامي الخضراء يأخذ صوراً، ويقطف زهراً، ويستنشق عبيراً، ثم يقارن ذلك الواقع الماضي بواقعنا الحاضر، فيكشف عن زيف الباطل، وتآمر الحاقدين، ثم يخاطب العربي الذي حمل رسالة الإسلام فعَلا وانتصر:

يـا أيهـا العـربـي تلـك سبيلنـا عُلـويَّـةُ المنهـاجِ والميـزان
والعـالـم المحمـوم ضـاق بشـرقِـهِ ذرعـاً وضـاق بغـربِـهِ الحيـوانـي
فلينطلـقْ بـاسـم العقيـدةِ زحفُنـا لِنُطيـحَ بـالأصنـامِ والأوثـان[2]

(١) شجرة طيبة ٨٤ ـ ٩١.
(٢) المصدر السابق.

وحين تبلغ الفتنةُ قدراً خطيراً، وتلفُّ المجتمعَ ظُلمةٌ مُتْلِفَةٌ، ويُحاصَرُ المسلم في النفس والبيت والمجتمع، ويُضيَّق عليه في الرزق، والحياة عامة، عندها لا بد من الكتمان، حتى يستمر المسلم في إقامة شرع الله، ويدوم على إخلاصه للدعوة، وهنا نرى الشاعر يلجأ إلى الرمز، ومع ذلك يظل الأمل مشرقاً، ويظل الإِيمان متوقداً.

إن صرخة الإِيمان داوية، وشواهده باقية في كل زاوية، وكل نفس وكل تراث، لهذا ينادي شاعرنا حملة العقيدة أن يرفعوا الراية من جديد، ويظهر على ندائه نغمات التأثر الحزين، والغربة الجريحة:

يا شعاع الطور قد طال السرى ... والقلوب العمي حيرى في دجاها
والدراري خُنّساً أو كُنَّساً ... غبشٌ طامٍ، ضلال في سراها
والدروب السود عشواء الصوى ... لجّت الظلمة في طمس صواها
والزحوف البكر بشرى نهضة ... روعة الإِيمان تزهو في دناها
هاتها يا جانب الطور هدى ... أبداً تلقي على الطور هداها[1]

ويصور فيها جانباً من الصراع الدائر في النفس والمجتمع، فيها إغراءات، وعوائق كثيرة، ورعب يحاول طمس الحق، وإرهاب لأهل العقيدة، لكن القلوب المتصلة بالله سبحانه، لا ترهب ولا تضعف، ولا تلتفت إلى هذه المغريات:

فأعماقنا ما غزاها المتاع ... وحب الشوامخ فيها بذر
ويا زيف إني أحس الصراع ... يهزُّ الرعاع، يدكُّ الحجر
يحطِّم أوثان أرض الضياع ... ويلقي بها في ظلام الحفر
وإني أحسُّ انبثاقَ الشعاع ... وألمح فيه انطلاق الزمر
غداً، في غد يضمحلُّ القناع ... ويصحو مع النور ركب البشر[2]

---

(١) من قصيدة «من جانب الطور» ٩٢ ـ ٩٧.
(٢) من قصيدة «خيام الفجر» ص ١٠١ ـ ١٠٨.

أما في قصيدة «سنّة الله» يصور مضمار الزمن وقد خلا من أمة الإِسلام بعدما كانت السبَّاقَة، والرائدة تحمل الرسالة والمشعل، فيدعوها من جديد لحمل الأمانة بعدما تكالب عليها الأعداء.

ثم يختم هذه المجموعة بقصيدة «الله والطاغوت» التي تمثل الصراع الدائر بين الخير والشر، وبين الدعاة إلى الله وأصحاب المذاهب الوضعية، وبين شريعة الله وشرائع الشيطان.

والعقيدة هي الأصل الذي تتفرع عنه كل الأجزاء والفروع فإذا كانت عقيدة المرء صالحة وصحيحة، صلح المجتمع وصلحت النتائج. أما إذا فسدت العقيدة، وانحرف الناس عن الحق ضاع المجتمع وانهارت الأمة:

تاه الدليل! فلا تعجب إذا تاهوا ... أو ضيِّع الركب أشباح وأشباه
تاه الدليل! فلا تعجب إذا تركوا ... قصد السبيل وجاروا عن سجاياه
تاه الدليل! فلا تعجب إذا انحرفوا ... عن الصراط لِلاَتِ الشرك عُزاه

وكل الكائدين للإِسلام، كل الذين يحاربون دعاة الله ويكرهون الحق، مهما اختلفت ألوانهم ومشاربهم وأساليبهم يلتقون تحت راية واحدة للقضاء على دعوة الخير، ولكن الله سبحانه لن يتخلى عن عباده المؤمنين:

يا رب هيِّئْ لنا من أمرنا رشداً ... يهدي السبيل فإنَّا قد أضعناه
وها هو الشرك في أرجاء بقعتنا ... شرك بواح وما انفكت خفاياه
وا أمة أخرجت للناس أثخنها ... مكر العدو، فكانت من مطاياه
إن العدو، هو الطاغوت فانعتقي ... من كيد إبليس، إنَّ المكر إياه

والطريق واضحة أمام الأمة، إنه الجهاد في سبيل الله، والتضحية من أجل العقيدة:

إن السبيل سبيل الله فانطلقي ... نحو الجهاد وخوضي غمر دنياه

وسيظل الصراع قائماً بين الخير والشر حتى يرث الله الأرض ومن عليها ولن يعذر مؤمن في الخنوع والخضوع، ولن يفلت موحد من حساب الله عما

ترك وقصر، لذلك لابد من الفصل والتمييز بين الحق والباطل، لتكون الخطى واعية ثابتة:

الكافرون هوى الطاغوت منهجهم والقاصدون الهدى يهديهمُ اللَّه[1]

ويظل شاعرنا، صوتاً إسلامياً متميزاً، قوياً صادقاً، يشرق شعره بنور الإيمان، ويعبر به عن الفطرة السوية، وعن حنين الضمير التائب إلى الله، المبصر بنور الله.

* * *

بعد هذه الجولة في حدائق الإيمان مع شعر الغزيِّل، لا بد من إشارات سريعة لما تركته هذه المجموعة في النفس والفكر، ولن تكون هذه هي الكلمة الأخيرة في شعره وأدبه، بل هي عرض وخواطر عن شيء من إنتاجه، لأنه ما زال في الطريق، يحث الخطى نحو الذرى بثبات، يدفعه الإيمان والإخلاص والموهبة والحس المتوفر، والتجربة الأصيلة والثقافة الواسعة، والذي لا بد أن نحسه في كل كلمة من شعره أنه طاقة من حس مبدع، وكتلة من مشاعر ملتهبة، إنها نفحات إيمانية لا يستطيع صاحبها كتمانها، فهي كالعبير، تخرج عن الطوق، وقلَّ أن نجد مثيله في الرهافة والصدق. ويمكن أن نسجل من هذه الانطباعات ما يلي:

١ ـ لقد كان الشاعر سبَّاقاً للتعبير عن رأي الشباب المسلم، وعن مشاعرهم وآمالهم، بصدق وعذوبة وأصالة، فكان صوتاً إسلامياً متميزاً لا سيما في مرحلة اشتد فيها الصراع بين الأفكار والمذاهب في كل معهد ومنتدى وموطن.

٢ ـ لهذا نراه قد أبرز في شعره صورة الالتزام بالأدب الإسلامي، قولاً وفعلاً، فكان شعره تعبيراً عن فكره، وصدى لمشاعر الجماهير المؤمنة، وترجمة للسلوك العملي للشاعر.

---

(١) من قصيدة «الله والطاغوت».

٣ ـ ولقد حمل رسالة الشباب المسلم في صراعه مع الطاغوت، وصموده أمام الصعاب والمغريات، ولم يثنهم شيء عن متابعة الطريق والتماس رضوان الله عز وجل، وسط أعاصير السياسة والأفكار.

٤ ـ وشعره في كثير من جوانبه يصور الممارسة اليومية للفرد وسط المجتمع الذي تتصارع فيه الأفكار، على مستوى السلوك الفردي، والأحداث الاجتماعية والسياسية.

وأكثر هذه القصائد تعتمد على خلفية واضحة لهذه التجارب في المرحلة التي نظمت فيها القصائد.

٥ ـ وفي شعره أمل لا يختفي رغم الأحزان وشعور الغربة، إنها الثقة برب العالمين التي تلازم المسلم، فيطمئن في أحلك الظلمات أن الله معه وأنه لن يخلفه وعده.

٦ ـ وهناك لهفة عارمة ظامئة تبدو في أكثر القصائد، وهي لهفة المنتظر في حلكة الليل القارس إلى بزوغ الفجر الدافىء، وتفجر الصبح الأبلج الذي يخلص الأمة من أخطار الظلمات.

٧ ـ والقصائد بمجموعها طاقة حية من شعور صادق ملتهب، وإحساس مرهف ونفس شاعرية، لها من الموهبة الأصيلة ما يجعلها تتفجر إبداعاً بالكلمة الموحية، والموسيقى العذبة، وهي تمضي مع الأيام لتزداد نضوجاً ورصانة.

٨ ـ وهذا الشعر يعبر عن حياة الشاعر، وعن منحنيات نفسه، وحدود تأملاته واهتماماته، فالدعوة لديه حياة، والفكرة روح، إنها صورة ذاتية عن الشاعر.

وهناك كثير من المعاني العملية التي يحرص عليها المجتمع الإِسلامي كانت بارزة في هذا الشعر، كالأخوة في الله التي أبرزت مفهوم الجماعة المسلمة المترابطة عضوياً، كالبنيان المرصوص تسير لغاية واحدة.

٩ ـ والشاعر فنان موهوب، طاقة من الشعور المرهف، لا تعرف التكلف، ولا تتلكأ في اختيار الألفاظ والتماس القوالب، يتدفق شعره تدفقاً عفوياً، وتتسابق الألفاظ العذبة في الأبيات، لذا نلمس في شعره العذوبة والبساطة، والسهولة مع القوة.

١٠ ـ وليس خافياً عذوبة في اللفظ، وشفافية في الكلمات والعبارات، وتظهر في كل بيت من أبيات الشاعر. وإنك لتحس بهذه الطاقة الشاعرية من ألفاظه وتراكيبه: بساطـة، وعذوبة، وشفافية، مع ديباجة مشرقة، وأسلوب متين، تعبر عن ثقافة ودراية وأصالة في العربية، فضلاً عن الموهبة والرهافة.

وفق الله الشاعر لكل خير.

* * *

مع «طاقة الريحان» للشاعر محمد منلا غزيل

بعد سنوات عجاف عاد شاعرنا ينشد من جديد لجيل يتحفز متحدياً كل الصعاب لإقامة شرع الله في الأرض، ويواجه أعنف صراع فكري في حياة هذه الأمة، ويخوض أعتى معركة في الحياة: على مستوى العقيدة، والوجود.

خلال هذه المرحلة الماضية كان شاعرنا يعود إلى أعماقه ونفسه وفكره، إلى شعلة وجوده ليستمد منها طاقة الحياة والاستمرار، وقد عانى في سبيل ذلك ما عاناه الجيل كله من محنة، لأنه أراد من الحرف الذي يكتبه أن يتحول إلى طاقة فكرية ناضجة، وطاقة روحية دافعة، وطاقة شعورية صادقة، وأن تكون طاقة إيجابية، بنّاءة، مشعة، فيها وضوح العقيدة وبساطتها، وفيها روح الإيمان وقوته، وفيها إشراقة الثقة وعمقها، وفيها نضوج التجربة وغزارتها.

إن الكلمة رسالة وأمانة ووسيلة معاً، ما دامت هي الصورة الإيجابية التي توقظ العيون، وتحرك الوجدان، وتفتح القلوب، وتدفع الفكر نحو المستقبل. إنها نبع من النور معطاء خيّر، فيه روح الصفاء، وشفافية النور، وروحانية الأمل، وعبير الخيال.

أيهـذا الحـرف... فـي نجـواك طـابـت أغنيـاتـي
أنـت رمـز الشعـر... رمـز الفكـر، فـي مـاض وآتِ
عـرفتـك النفـس صفـواً، فـي المجـافـي والمـواتـي

مـن ظـروف الـدهـر، يـا للحـرف مـن عـذب فـرات
يسكـــب الأشـــواق جيّـــاشـــاً، بـــأنفـــاس الحيـــاة

وهذا الحرف الشاعري طاقة تستقي من الأعماق المؤمنة روعة الصدق والإِخلاص، وتحمل أمانة الحداء والريادة.

الحرف هنا: نبال ورصاص، وفجر هدى ونور، والتزام وصدق ووسيلة من وسائل الدعوة، ينبع منها ويعيش لها، ويسرح في رحابها وسيبقى الرمز الحي الجميل لاستمرار الجهاد في سبيل الحق.

ولتكـــن رمـــزاً شمـــوخـــاً للجهـــاد والثبـــات

* * *

هذه الأبيات الماضية صورة لما تحمله المجموعة الجديدة «طاقة الريحان» لشاعرنا محمد غزيل، التي أراد من خلالها مواصلة الطريق، وتجديد العزيمة، وهي تحمل سمات الشاعر بكل ألوانها وطعومها، وتمثل جميع مراحله الأدبية القديمة والجديدة، وتصل بين ماضيه الحافل وحاضره الآما,، وتعبر عن الخط الصاعد بين مراحله الأولى وما وصل إليه في شعره الحديث.

* * *

ومن خلال إحساس الشاعر بطبيعة المرحلة المعاصرة، وما فيها من صراع فكري محتدم، وما ينبغي من واجبات على المسلم، لفهم بواعث الأمور وحقائق الدعوات المطروحة، والمصطلحات الحديثة، ولتقويم ما يدور حوله من أفكار وأعمال مهما تعددت مظاهرها الأدبية والاجتماعية والفلسفية والاقتصادية والسياسية والعلمية.

من خلال ذلك كله أصبح شاعرنا يعشق الفكرة التي تحمل أصالة الحق، ويهتم بالبحث العميق، ويتتبع الدراسات، ويجري المقارنات، ليواكب تطور الحياة والفكر معاً.

ولم ينس أن التطور الذي يشمل كل هذه المظاهر لا يغير من ثبات الحق وأصالة العقيدة ورسوخ الإِيمان.

من هذه المنطلقات يمضي شاعرنا بوضوحه ورموزه، ليؤكد أنه مع الدعوة، ومع الكلمة الطيبة، في طريق الحضارة الإِسلامية المنشودة.

لمّــا تــزل أشــواقنــا المــوّارة   لمــا تــزل أعمــاقنــا الفــواره
تنشــال بــالطمــوح كــالشــرارة   لتطلــق الإِشعــاع والإِشــاره
فـــي دربنـــا لنصنـــع الحضـــارة

ولكن العمل في سبيل الفكرة تعوزه العزيمة الراسخة، والإِيمان الواعي، والثقة القوية بالله عز وجل، ليرتفع البناء قوياً، لا خلل فيه، ولا ضعف ولا غرور، وهذا هو معنى الثقافة الفاعلة:

إحســاسنــا فــي ذروة الــرهــافــة   ومــن رؤانــا صفــوة الســلافــه
فــي ذوبهــا التــاريــخ والطــرافــة   تجتــاح فــي تيــارهــا الخــرافــه
بحيـــث تسمـــو شعلـــة الثقـــافـــه

عبر هذا الطريق سيتألق الفجر في الصبح القريب، وتندحر جحافل الظلمات: من استعمار منوّع، ويهود، وفجرة، ومنافقين، وضعفاء، وأتباع متخاذلين.

نعم تندحر أمام زحف الذين بايعوا الله على النصر أو الشهادة، والتزموا منهج الحق، ومضوا بعزمات الأبطال لبلوغ الغاية:

آمــالنــا يــا أيهــا النهــار   يــا يــومنــا المــوعــود يــا زخّــار
وطيــدة الأركــان لا تنهــار   مهمــا دجــا العــدوان مهمــا جــاروا
لــن يفلتَــنْ مــن كفنــا استعمــار   لــن يفلتــنْ صهيــون والفجــار
ففــي غــدٍ «سَتَطْلِــقُ الأنصــار»   زحــوفهــا يقــودهــا الفَخَــار
شعــارهــا الثبــات والأحــرار   فلتــأتلــق يــا أيهــا النهــار

* * *

والشاعر وهو يخوض تجربة الحياة، يحمل راية العقيدة دوماً، يحملها في ثنايا الأفكار التي يطرحها في قصائده، وفي روح العاطفة التي تسري في القصائد، وفي حنايا الصور التي يرسمها.

وفي قصائده كلها يحقق صورة المسلم المتوازن، بين ماضيه البعيد، وحاضره القريب، ومستقبله المأمول.

وهو الرجل المتماسك بين عواطفه الذاتية، وهموم الحياة التي تواجه جيله وأمته كلها.

وهو الرجل المنصف بين مشاعره الخاصة، وأفكاره المكتسبة، مهما بلغت هذه الأفكار من التجريد والرمز.

وهو يوافق ـ أيضاً ـ بين ذكرياته وأحلامه، وبين واقعه وواجبه.

إن هذا التوازن والتماسك، الذي يتميز به الشاعر من خلال قصائده يمثل أصالة الفكرة، وقوتها، وعمق جذورها في الفطرة وسنن الكون فهو غير مفتعل، رغم أن الشاعر صارع مرارة الواقع، وذاق من بلايا المحنة ما ذاق، ولكنه لم يفقد توازنه ـ لأنه الشاعر المسلم ـ أمام المحن، يتفاعل مع الحياة ويعطي لأمته صفوة حبه، وصدق حبه، وبقي عذب النشيد للسائرين في طريق الحياة، الباحثين عن كرامة الإِنسان.

لقد كان الشاعر في مجموعته الجديدة «طاقة الريحان» ينتقل من الحاضر إلى الماضي ويعود من الماضي إلى الحاضر، بل تحس أنه يجوس في ديار واحدة، هي ديار الإِسلام، وينتقل في بهاء حضارة تحمل في طياتها القرون، لأن معنى الزمن في الأرض يتضاءل في شعور المسلم إزاء إحساسه بمعنى الزمن المطلق، الممتد إلى الحياة الأبدية، وتصبح له مقاييس أخرى، تربط بين الماضي والحاضر، بل بين الحياة الدنيا والآخرة. وتبقى له القيمة الحقيقية التي تلقي المسؤولية على المسلم، وتجعله يدرك معنى مروره

وانقضائه. لهذا نرى الشاعر، لا تغرقه معالم التاريخ الوضيئة، ولا يحس الماضي بصفته أطلالاً وآثاراً، وإنما يقلبه، ويسير فيه ويحيا معه على أنه حياة تمتد مع أصالة الفكرة، وروح تعيش مع الأمة، إنه قلب نابض يدفع في شرايين الحياة دماء الحياة ذاتها، مع كل معطيات التجربة المستمرة. وحين نمضي مع عدد من قصائد الشاعر نراه يعبر من الماضي إلى الحاضر ويربط بينهما معاً، ويراهما كلاً متصلاً، خلاف ما يراه المهزومون، بأنه ماضٍ غابر، انقطعت بيننا وبينه الأسباب، وعلينا أن نبحث عن سبيل جديد، ولو أدى ذلك إلى ضياع:

هذا هو الشاعر يقول في قصيدته «نفحة خالدة»:

النـــور أشـــرق والعبيـــر تـــأرّجـــا فانضح رفيفاً في الضلوع توهجا
وانسج على المنوال، منوال السنا ديبـاجـة... نعـم الضيـاء مـدبجـا
ذكرى الرسالة والرسول تلامحت فـادفـع بهـذا النـور ذيّـاك الـدجـى

هذه هي الرسالة: حياة جديدة من نور للفكر والقلب والوجدان، ينتظر دوماً حملة أمناء مخلصين، لكي يدفعوا الدياجي عن الأبصار والبصائر:

فاطمس ضلال الزيف في تمويهه متهـافتـاً نـزقـاً، وغـراً أهـوجـا
واستلهـــم التـــاريـــخ قصـــة فتيـــة رفعـوا اللـواء العبقـري مضـرجـا

فهل يجوس هنا خلال الماضي أم في أرض الواقع الحاضر شباب يعمر الإيمان قلوبهم؟

إنه يصنع المعبر لحاملي الأمانة، يوقظ القلب والعين والفكر، ويشعل النور ويشحن العزيمة، ويحدد المعالم ليهتدي بها الماضون على الطريق.

وحيـن أراد أن ينشـد فـي ذكـرى بـدر، لـم يلمـس أرض المعـركـة كذكريات، بل يريدها حياة مستمرة من المعارك، وفيضاً ثراً من الإيمان والتجربة، وعزماً متجدداً للدعاة.

إنه يريدها حقيقة أرغمت أنوف المتغطرسين من طواغيت الأرض أمام روعة الحق، فهي ـ هنا ـ صورة نابضة لحملة الفرقان:

إيه يا بدر فاصدعي بالمعاني ... وليدكّ الفرقانُ كلَّ جُمودِ
فإذا موجة الضلال غثاءٌ ... وهباءُ أشتات بغيٍ بديد

وليس أقسى على المسلم من أن تتحول بدر وأمثالها ـ من قيم حياتنا وتاريخنا ـ إلى ذكريات ووقائع وقصص للحكايات، يترنم في سردها المنظوم، شعراء وقصّاص ورواة، فتموت على أنغام الكلمات الرتيبة.

إننا نريدها ـ مع شاعرنا ـ حياة متجددة، ومعاني تبعث في كل يوم روحاً واقعية، لتصنع فينا ومن خلالنا جديداً، وتغيِّر واقعاً. ونريد ـ أيضاً ـ من الأدب الإسلامي أن يصنع المعبر الصحيح بيننا وبين هذه الحياة، وأن ينقلها لنا دماً حاراً، وفكراً مشرقاً حتى نحس أنها ستظل دوماً مع الحياة إن شاء الله.

ولا تخرج قصيدته «راية الأنصار» عن روح بقية القصائد، فهو لا يتحدث عنهم كمؤرخ أو قصاص، بل يحاول وضع القارىء في خِضَمِّ الحياة ليرى روعة الكفاح في ظل العقيدة.

والذين يتحدث عنهم ليسوا بعيدين، إنهم فلذات أكبادنا، ورواد الطريق بدمائهم وتضحياتهم:

يا إخوة التوحيد ... يا أصحابنا الأحرارْ
يعيش في أعماقنا ... من حبكم تيارْ
من وجدنا بحقنا ... من السنا المِوار
فنجتلي في ضوئه ... ملامح الأبرار
في صورة يضمها ... من شوقنا إطار
نستلهم الصفحات ... من ملاحم الفخار
دروس تثبيت ... على مكاره الغمار

نخـــوضهـــا بـــالصبـــر والإِقـــدام والإِصـــرار

والمثل الحي قائم ما قامت الحياة: **ياسر** ذلك الرجل المؤمن الصابر الذي آثر الجنة ومرضاة الله على كل ما في الحياة، وكسر أنوف الطغاة بإيمانه.

وسمية: تلك المرأة المؤمنة التي مرغت كبرياء الكفرة بالتراب، وأناخت عزائمهم أمام عظمة الإِيمان في قلبها، وقوة العزيمة في نفسها، ومضت أول شهيدة في الإِسلام إلى الجنة راضية مرضية:

فلتصطبـــر سميـــةٌ وليصطبـــر عمـــار
فـــإنمـــا الفـــلاح يـــا يـــاســـرُ عقبـــى الـــدار

فلتمض ـ إذن ـ يا عمار على طريق أبويك، في المدينة، وفي كل أرض إسلامية، عبر العصور والأزمان، لأن ياسراً شهيد حي ماثل في الحياة كل يوم، ما دام هناك قلب ينبض بالإِيمان الصادق، وطريقه واضحة، والنصر قريب مع الصدق واليقين:

وهـــل أتـــى يـــا إخـــوتـــي علـــى المـــدى انتصـــار
بـــلا امتحـــان بـــاهـــظ الأعبـــاء واختبـــار
فـــاستنفـــروا طـــاقـــاتكـــم وليظفـــر استنفـــار

والله القوي القاهر ناصر عباده المؤمنين المجاهدين حين يصدقون العزم:

ففـــي غـــد ستسقـــط الأصنـــام والأنصـــاب
مـــا صـــولـــة المستكبـــر المستهتـــر الكـــذاب
والمجـــد والخلـــود لـــلإِســـلام والكتـــاب

* * *

والإِنسان الذي يخاطبه الشاعر هو الذي صاغه الإِسلام: فكراً، ووجداناً، وسلوكاً في حياته في الدنيا، والآخرة. وهو الإِنسان الذي بقيت

فطرته سليمة واستعصت على الجاهليات، فلم تستطع إفسادها، لذا فهو في التايخ ياسر وعمار، وأبو بكر وعمر، وخالد وقتيبة وسمية وأسماء، وعلي وأبو ذر، ومصعب ونسيبة، وصلاح الدين، و. . .

وهو في الحاضر، كل من حمل الإِسلام منهج حياة، والتزم به عقيدة وسلوكاً، وكل من جاهد بالكلمة والمال والنفس لإِقامة شرع الله في الأرض.

ومن خلال الحياة، في ظلال الحديث الشريف يرى الشاعر صوراً مشرقة، فهو يرسم طريق العروج والصلة الحقيقية بالله ـ عز وجل ـ واتخذ الحديث الذي رواه ابن مسعود عن رسول الله ﷺ وسيلة لذلك: «لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال: يا محمد! أقرىء أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غرسها:

سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر».

وهو في الحقيقة منهج حياة، بما ضم من معانٍ في العقيدة والسلوك:

في هدأة الليل في ديجوره الساجي ... يطيب إنشاد مشتاق ومهتاج
يطيب أن ينشر التبيان ما نسجت ... أنامل الشعر من ألوان نساج
فلتأتلق ليلة الإِسراء غامرة ... بخيرها كل ملهوف ومحتاج
نحن الظماء إلى التأييد يمنحنا ... صبراً، ثباتاً لمكروه وإزعاج
قد علّم المصطفى أبناء أمته ... أن الثناء كنهر جدّ ثجّاج
يسقي غراس الهدى ينبوعه غدقاً ... عذب المذاق بأمواج وأمواج

ويتابع الشاعر الحديث عن روح هذه المعاني التي تتضمنها: سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله، والله أكبر.

ومن خلال استلهامه لحديث آخر «أوتيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي: أوتيت جوامع الكلم، وأرسلت إلى الناس كافة، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، ونصرت بالرعب، وأوتيت الشفاعة» من خلال هذا الحديث يبين

فضل العقيدة على الأمة، ويجعل من ذلك منطلقاً لاستمرار الجهاد والدعوة في سبيل الله:

لئن أضلَّ الهوى عُبَّاده سَفَهاً ... وغرّ مخمورهم تلك السماديرُ
لقد عرفنا سبيل الله واضحة ... ما غرّنا في ضلال التيه تحذيرُ
فسنة المصطفى درعٌ ممنعةٌ ... نسيجها الحر تغيير وتطويرُ

وهذا هو طريق النصر بإذن الله، حين ينطلق جند الإِيمان مجاهدين مخلصين لتطبيق شرع الله في الأرض، كل الأرض:

فلتركبي يا خيول النصر زاحفةً ... ولتحملِ المشعلَ الأسنى المغاويرُ
فلترتقب قدسنا زحف الرجال غداً ... وخاب للكافر المحتل تدبير
إن الجهاد لماض رغم زوبعة ... كانت هباءً وإن الحق منصور

* * *

وينظر الشاعر حواليه فيرى ذكريات محببة من ماضيه القريب، ذكريات في دمشق، وذكريات في حلب، على مقاعد الدرس، وفي المنتديات بين الصحب والإِخوة، يوم كان يُنشِدُهم أحلى أشعاره، ويشاركهم في المناسبات المختلفة بقصائده، فإذا بالذكريات رفرفات قلب متعطش للمجد والحق، وها هو اليوم يقف بعد سنوات ليذكرها، ويحن إليها، ويلملم ذكرياته الحلوة فيها:

ها بعد عشرٍ من غياب النجم عن أفقي كَوَامِلْ
لمّا تزل ذكرى رؤاه في حنايا القلب وابل
فلتطوها يا أيها الملهوف في غمر التفاؤل
وافترَّ عزماً رغم أنف الكابحات فلا تخاذُل
أخلصت ودَّك والأنيق من العبارات الحوافل
وقبست من وهج المودة جذوة.. يا للمشاعل

* * *

وتثـــور فـــي أعمـــاقنـــا يـــا شـــام المســـائـــل
هـــل مـــن لقـــاءٍ ذات يـــوم بـــالأحبـــة بـــالشمـــائـــل
أتحـــور أشـــواق الفـــؤاد كمـــا الـــرمـــاد هبـــاءَ بـــاطـــل؟
لا، بـــل ستبقـــى رغـــم أنـــف الـــزيـــف شـــامخـــة المعـــاقـــل

وحلب في وجدان الشاعر موطن، وذكريات وموئل معاً، فيها درج وتعلم، وبها ظهرت بواكير ثماره، شهدته مدارسها، وعرفته مساجدها ونواديها فتركت في وجدانه أجمل الذكريات:

شهباء في النفس أشواق مجنحة ... قـــد كبَّلتهـــا مـــع الأيـــام ظلمـــاء
قد أحرقت برؤى الوجدان حلكتها ... وخيلـــت أنهـــا بكمـــاء صمـــاء
ومسَّتِ الصحب ـ باللصحب ـ لفحتها ... فـــذاق لـــذع المعـــانـــاة الأخـــلاء
ما من وميض وما من جذوة سطعت ... من جمر إشعاعها الوقَّاد أضواء
حتى توهَّج في الأعماق أعمقها ... ولاح مـــن بـــرْقِـــهِ الألاَّق لألاء
شهباء! طوَّفتُ في الأرجاء منطلقاً ... والـــذكـــريـــات، ولـــلأرجـــاء إيحـــاء
سبعٌ مضين لهن الحب في حلب ... سبـــع حِســـان فمخضـــاب ومعطـــاء

ويتابع الشاعر فيأمل أن يحملَ أبناءُ الجيل في قلوبهم حقيقة الإيمان وأن يمضوا مجاهدين لاستعادة القدس، واسترداد الحق المغتصب في فلسطين وغيرها، وتحكيم شريعة الله عز وجل.

* * *

والشاعر الذي التزم بالشعر الموزون في كل دواوينه، يسعى لتقديم ألوان جديدة، ثرية بالأفكار، عليها طابع الأصالة والصدق والعفوية، وتتصل بواقع الحياة في كثير من صورها ومناحيها.

وكذلك فإنه لا يفرط أبداً في سلامة اللغة، وشفافية العبارة، وحلاوة الكلمة.

وفي هذه التجربة يريد أن نتنبَّه إلى الصور الجديدة المشوهة، التي بمجُّها الذوق وتخرج عن قواعد التعبير الصحيح، واللغة السليمة.

وفي القصيدة التالية يوزع قصيدته بطريقة جديدة، لا يخرج فيها عن الوزن، ولكنه يجدد في الشكل:

يـا طـاقـة الـريحـان: إني أوثـر التـوزيـع حـرا
حينـاً، تجـانـب فيـه أصـداء الصـدى قيـداً وأسـرا
وتصـوغ خـالصـة المـودة ـ للشهيـد ـ رضـاً وشكـرا
للـرائـد الـوثَّـاب، للقلـم المسـن الفـذ تتـرى

ثم يبدأ في الصورة الأولى التي تمثل حياة الشاب المؤمن:

حياة طفولة

ودنيا جميلة

وقلب مندى بطهر الفضيلة

حياة حنين

سخي هتون

وقلب دفوق بعطر اليقين

حياة غناء

سخي النداء

حياة قصيدة

دناها سعيدة

وقلب طموح نقي العقيدة

حياة صلاه

بأندى شفاه

وقلب نقي بحب الإِله

حياة كفاح

ودرب جراح

وقلب شغوف برشف القراح

بحق صراح لوهج الصباح

حياة جهاد

حياة جلال

حياة شجون

وصبح ضحوك

وضيء الجبين

وليل عبوس وفجر مبين

كلفح السعير

بقايا شرور

وقلب زخور بوهج الشعور

ورب لطيف

رؤوف غفور

فهذه الحياة ـ الأنموذج ـ فيها صعاب، وفيها شفاء وصفاء، فيها آمال وفيها كفاح وجهاد، فيها صراع وعذاب وشهادة، وطاعة وانطلاق، وفيها طمأنينة وثقة، كل ذلك في رضوان الله عز وجل، لأنها تظل في عالم الإِيمان، في رضوان رب غفور.

إنها حياة المسلم في ليله ونهاره، في فرحه وترحه، في سلمه وحربه، في كل أحواله يصوغها الشاعر في هذا القالب الشعري الحديث، بأسلوب عفوي عذب.

* * *

بعد هذه الجولة في هذه المجموعة الشعرية للشاعر المسلم محمد منلا غزيل نخلص إلى أنه كان في شعره كله: إسلامي الفكر، إسلامي الشعور، إسلامي السلوك، واضح التصور، يحمل إشراقة الأمل والثقة بالنصر رغم قساوة الظروف، وظلم الأحداث.

إنه ينظر للتاريخ على أنه واقع يتجدد ما دام الدعاة إلى الله يستمسكون بمنهج الله عقيدة وسلوكاً، لهذا تتجدد الأحداث، وتصبح وقائع معاصرة، لتستنفر الهِمَمْ وتحيي الآمال.

ولقد كان في شعره يمثل دوماً روح الشباب المؤمن، وعزيمته وشجاعته وصدقه.

وحرص أيضاً على التأكيد بأن العمل مع الإِيمان هو الطريق الصحيح للوصول إلى الغايات السامية.

إنه كان ينتقل في هذه المجموعة من الماضي للحاضر، ومن الحاضر للماضي، وكان يقتبس من التاريخ كما يأخذ من الواقع، وكان يلم بالنفس كما يلم بالمجتمع.

ولم تكن قصائده إلا مقطوعات وأناشيد للشباب المسلم ونفثات ورؤى على درب الجهاد الطويل.

إنه رسم لنا صورة المسلم، الإِيجابي، بشمول تصوره، وسعة فكره، وقوة عزيمته، ووضوح الرؤية، وطهارة السلوك، وصدق الإِيمان، وشعره هو

نفسه، ومشاعره المتأججة في فكره المتوثب،وواقعه الموار بالحركة والنشاط.

إنه واضح المعلم، عذب النشيد، له شفافية روحانية محببة، لهذا كان واحداً من الحداة لركب الإِيمان السائرين على درب الحق.

* * *

مع ديوان (عصر الشهداء)
للدكتور نجيب الكيلاني

وسط الزحام الخانق، يبحث الظامئون عن واحة يستظلُّون بها من القيظ، وينشدون جرعة هانئة تمدهم بعزم جديد، وتوقظ في قلوبهم حب الأمل من جديد.

وفي عالم الأدب ما زلنا ظامئين وقد أتعبنا السير القائظ والرحلة الشاقة البعيدة، وحين نفاجأ بواحدة من هذه الواحات يملأنا الفرح حتى نكاد ننسى مشقة السفر الحائر، ثم نتوقف لننعم بشيء من الراحة ونتزود بمواصلة السير من جديد.

فإذا كثرت الواحات زدنا أملاً وثقة، وقويت في نفوسنا العزيمة والمضاء.

وعبر هذا الدرب الشاق فاجأنا الدكتور نجيب الكيلاني بديوانه الجديد «عصر الشهداء»، بعد أن زود مكتبة الأدب الإِسلامي بعدد من رواياته الجديدة التي برز فيها التصور الإِسلامي للحياة، وتميزت بالكلمة الطيبة والفن الصادق، والتصوير الموحي، واللمحات الذكية. وكان منها: «نور الله، دم لفطيرة صهيون، عمر يظهر في القدس، قاتل حمزة».

أقول ذلك بعد أن رأيته يبدو أكثر وضوحاً وأصالة وأكثر عمقاً وشاعرية، وأصدق تعبيراً وفناً.

واستطاع ـ أيضاً ـ أن يتخلص من التردد والتشتت بين التزام التصور الإسلامي، في الأدب، أو استرضاء المشاعر أو التماس الرضى والقبول عند كثير من الناس[1].

ولن نتكلم هنا عن هذه الروايات، التي أمدت مكتبة الأدب الإسلامي الحديث بزاد أصيل صادق، بل سنتوقف عند ديوانه الجديد «عصر الشهداء».

* * *

وقبل أن نستروح في هذا الظل الناعم لا بد من التعريف بالديوان لنبدأ هذه الجولة في عصر الشهداء، ومع هذه الصورة الحية من عالم اليوم الذي نعيشه بكل تناقضاته وقساوته.

يتألف الديوان من سبع ومِئَة من الصفحات وهو من القطع المتوسط، يمتاز بطباعة واضحة أنيقة، وصفحات بعيدة عن كثافة السطور والكلمات، كما أنها ليست من صفحات الدواوين الحديثة ذات النقاط والحروف والفواصل وإشارات الاستفهام والفراغات الكثيرة.

ومن يطالع الديوان سيتمتع برحلة هانئة، رحلة يرى فيها أصداء الروح الإنسانية تتجاوب مع الواقع الحي ويشهد صورة العصر الحديث بأشكال مختلفة، ويتلمس الجراح النازفة في شتى المواطن.

وخلال ذلك لن يشعر بضياع «أو دوار» بحثاً عن معنى، أو التماساً لهدف، فالطريق واضحة، والقصد بيِّن، والمعنى لا تغلفه رموز أو إشارات

---

(١) كتبت هذا قبل سنوات بعيدة، وربما كنت مسرفاً بعض الشيء، وقد يحتاج الدارس إلى إعادة النظر، مع يقيني بأن الدكتور نجيب من أكثر الأدباء الإسلاميين قدرة، وأنجحهم أسلوباً، ولكن ذلك لا يعني أنه سلم من العثرات، وتخلص من تأثير المجتمع، وآثاره السلبية التي لا تتفق أبداً مع التصور الإسلامي، ولا تقبل في تمثيل الأدب الإسلامي.

مبهمة، ولا ينم ذلك عن سطحية وسذاجة، بل يدل على واقعية إيجابية في تصوير الواقع ومعالجة الأحداث.

* * *

وكما كان شاعرنا يبحث عن واحة، فإننا كنا وراءه خطوة خطوة نبحث معه عن واحة، ولعل هذا الديوان واحدة من الواحات التي نبحث عنها بعد أن كاد الفن يصبح رمزاً للضياع وصورة للتمزق والقلق.

وشاعرنا ينشد في ديوانه هذا الفن الإِسلامي الأصيل لأن الفن كما يقول:

الفـــــن هـــــو الصـــــدق الأكبـــــر[1]
الكـــــــاذب لا يخلـــــــق فنـــــــاً

أما الفن الحديث فهو زيف كاذب وصيحات غريبة تائهة، لأنه يبتعْد بواقعه عن واقع الإِنسان، ويزيف الحقائق ليصل إلى هدف يسعى إليه.

المعنى الحر يذوب
في بحر الزيف الملعون
لا شيء يكون
الكل خواء
صيحات في قلب فلاة
كفر بالله سخرية بالفكر الحر
وبقلب الإِنسان الحر
كهتاف للطاغية الأرعن.

أما الفنان الصادق فما زالت القلوب تهفو لسماعه، وترعاه وتنشد في صورته نبرات الحق التي يتعرى في شعاعها زيف الباطل:

---

(١) في هذا المعنى مبالغة كبيرة فإذا كان الفن هو الصدق الأكبر فما دور الدين إذن؟ ولكن الأدب الإسلامي ينشد أن يكون صادقاً بعيداً عن الضلال والوهم.

إن يصدق فنان مع نفسه
ترعاه قلوب البشرية
تبكي معه دون رياء
أو تنشد أحلى غناء
أو تحرق في ثورته الكبرى
وتمزق عار الفجر الكاذب.

ولهذا ظل شاعرنا يبحث مع الباحثين عن هذا الفن، عن واحة خضراء، عن قطرات باردة لتخلصه من صداع العصر الكاذب:

رأسي أحرقها صداع
أجراس جُنّتْ لا تصمت
وأنا أبحث عن واحة
يترعرع فيها نور الصدق
تنعشها أنسام الحق
تشرف بالأمل الحلو

أما صورة الفنان ورسالته فهي:

أبحث عن فنان إنسان
أقرأ في عينيه الحب
ليشرق في فمه الإيمان
يسقي الظامىء فجر حنان
يلهب قلب اليائس ثورة
يطفىء لوعة روح تحقد
يغرق في حلم أخضر
يثب كفارس
يهدم سور السجن الأسود
يرفع أحزان الأغلال

يخنق أجراس الزيف
يسحق أصنام الخوف
لم يخش سوى الحق الأعلى
يبصق فوق طلاء الأصنام
ويوشي الحب ربيعاً
ويغني أعرق ألحانه
للحرية للحرية
أروع ما عزفت قيثار الإِنسان
الفنان

* * *

إنها صورة الفنان المسلم الذي ينظر للحياة من خلال التصور الإِسلامي، فيتفاعل مع الحياة ـ بالطبيعة والناس ـ، ويكون في ذلك كله إنساناً إيجابياً، يسعى لخير مجتمعه، وينشد الحق في حياته، يتلقى ويفهم، ويتفاعل ويتحرك، ولا يخشى جبروت الطغيان ولا يكترث لأصباغ الأصنام.

ولقد كان حريصاً على إيضاح هذه الصورة كي يزيل شبهة السلبية أو العزلة، ولا يضيع في ذكريات الأمس أو اجترار الماضي، لأن الفنان المسلم أكثر الناس إيجابية وتفاعلاً دون أن يكون هذا التفاعل عشوائياً أو سلبياً.

من هذا المفهوم الواضح ينطلق شاعرنا ـ في ديوانه ـ فيعطينا صورة واضحة عن هذا الإِنسان الغريب حيث يصارع من أجل الحياة، يصارع ليرفع صوت الحق ويحمي كرامة الإِنسان، ويعلي قيم الحق الخالدة، فيكون شهيد الحق، وضحية المجتمع العابث، وخلال ذلك يلتفت إلى مجتمعه حيث يمثل الإِطار الذي يتحرك فيه فيرى تناقضاته ومنزلقاته، فلا ينسى أن يعطينا صورة عنه:

أبكي على عالم جنت أفاعيه تكاد فلسفة الإِلحاد ترديه

تناقضٌ... وصراخ لست أفهمه فكيف نَسلمُ من خلطٍ وتشويه

هذا العالم الذي تتغلغل فيه القيم السامية، وتسرح فيه الأفاعي ما زال يحرص على قيم أبي جهل وفلسفته، ويحرص على محاربة القيم الإيجابية والروحية... متدثراً بأثواب العلم، متظاهراً بالتقدم، مغتراً بما وصلت إليه البشرية من تقدم علمي.

وَطِئَتْ أقدامنا سطح القمر وتحدى العلم سلطان القدر
وهدير الآلة الصخّاب قد عانق الآفاق في شتى الصور
عالم لم يحلم العقل به مفعم بالعجب والآي الكبر

لكن المسلم لا يخفي رأسه في التراب، ولا يبهره التقدم المادي فينسى حقيقة المأساة الإنسانية، لأن الرعب يكبل الإنسان، والقلق يخيم على الإنسانية نتيجة للخواء الروحي، وافتقاد القيمة الإنسانية الخالدة، ولهذا نسمع صراخ البشرية تستنجد من الغرق:

يا رفيقي لم يزل عالمنا في متاهات المآسي والغِيَر
غارق في يأسه محترق ونداءات الضحايا تستعر
شبح الموت على آفاقنا يبذر الرعب فنوناً والعبر
ظله الأسود يجتاح الدنا هادراً بالحرب يلقي بالنذر

وسبب هذا الرعب والخوف والقلق هو:

إنما العلم بلا روح ردىً علمنا العملاق بالروح كفر

بل ربما يكون هذا التقدم سبباً لتدمير الحضارة الإنسانية وهلاك بني الإنسان:

ويحنا إن جن فينا فاجر ورمى بالذر في يوم كدر
فلتضع كل مهارات النهى ولتمدد في تهاويل الحفر

وهذا القلق دليل على فشل هذه القيم لدى تخليها عن الروح وإنكارها

للإيمان، والمسلم لا يقيم فلسفته على قدم واحدة، ولا يعاني من هذا القلق الدائم.

هذه الفلسفة في واقعها لا تختلف عن قيم أبي جهل حين حارب الإيمان وتمسك بالكفر، وآثر القيم المادية وأنكر الروح:

فأبو جهل على إيوانه ساخر النظرة للروح الأغر
هازىء بالحب لا يعنو له وأبو جهل له قلب حجر
ملء عطفيه غرور حاقد لم لا يطغى وقد حاز القمر

وتظل صرخات الإنسان تتعالى وهي تطلب الخلاص وتبحث عن ملجأٍ وطريق، إنها تسأل عن المنقذ الصادق العادل الذي يعطي كل ذي حق حقه، ويقيم أسس الحياة الاجتماعية على المساواة والعدل ويبني المجتمع على الإيمان والحب، فتزدهر الحياة بين يديه دون أن يتخلى الإنسان عن كرامته وقيمه:

وأنا أهتف حيران الرؤى أين في الناس فتىً مثل عمر

وعمر هنا يمثل إيجابية الإنسان المسلم، بتصوره الإسلامي الشامل الكامل المتوازن، فلا تطغى المادة على الروح، ولا تطغى الروح على المادة، وفي ظلال هذه القيم تتقدم حضارة الإنسان، وتستمر الاكتشافات العلمية دون أن يلجأ الإنسان إلى فقدان كرامته وقيمه التي ميزه الله بها عن مخلوقاته كلهم.

* * *

ويمضي بنا الشاعر إلى واحة أخرى لنرى الأمة العربية تصارع الأعداء المتكالبين، تعاني الضيم والظلم والاحتلال والفرقة، فيعود إلى واقع هذه الأمة يتحسس الآلام، ويتعرف على الأسباب فيرى تشويهاً في ناحية، وتخلياً عن أصالتنا في ناحية أخرى، لهذا يصور لنا رمزاً للعربي الذي يأبى الضيم، ويتمسك بقيمه الرفيعة، ويدافع عن أحساب قومه، ويأبى الظلم مهما كلفه ذلك من تضحيات، ويأخذ من تاريخنا شخصية عنترة.

إنما عنتر معنى من معاني الألمعية
قيمة تعلو على كل القيم
فهو فارس
وهو عملاق العدالة
وأبو الأحرار في أرض العبيد
يحتوي كل قديم وجديد
ضمن قلب كالحديد
وهو معنى من معاني الكبرياء
لم يطأطىء رأسه للأدنياء
لم يته وسط قطيع الأقنعة
وجهه الأسمر من غير قناع
كلنا يعرف عنتر
لحنه يعبق بالحب المعبر
ومن العينين ينساب أمل
لم تضعضعه تهاويم الوجل
هو للنصر مثل

هذه صورة العربي، يحافظ على قيمه، ويدافع عن أحساب قومه، ويضحي من أجل كرامته دون زيف أو رياء، ودون خوف أو وجل، صورة للفروسية العربية الصادقة التي نحلم بها من جديد.

* * *

بجانب هذه الصورة نرى صورة أخرى من صور الواقع المحزن الدامي، صورة المسلم بمعاناته وآلامه، صورة المجتمع العاثر، والأمة المنكوبة.

وهنا في القدس تبلغ المأساة قمتها حيث تمثل قمة الحضارة والروح والقيم الإنسانية، هذه المدينة المقدسة تسقط في يد السفاكين الأدنياء.

أحزان في دنيا الإسلام
ماتت فوق القيثار والأنغام
وتنوح قباب ومآذن
سقطت كُلُّ الأعلام
ينهمر دموعاً قلب المسلم
أشواق الروح قد اعتصرت
بأيادٍ حمرٍ همجية
نحن خطايا
في دنيا العار سبايا
أسواق داعرة الحق
الحق يباع
الدين يباع. . . . حاشا لله
الله يباع. . . . يا كفرة
سقطت عذراء التاريخ الأعظم في قبضة مومس
مقبرة صلاح الدين ينبشها ذئب أجرب
وشواهد أيام الحرية
داستها قدم غجرية
والصخرة في قلب المسجد
يتسلقها بغايا
أية فضيحة هذه وأية مهانة؟
القدس في قبضة يهود
ومقبرة صلاح الدين يدوسها
الحاقدون السفهاء؟

ولكن المسلم لا يغرق في المأساة لليأس، الأمل نور في عينيه، وغداً يسعى لتحقيقه ما دام قلبه ممتلئاً بالإيمان، إنه ينقضّ على هذا الواقع لأن نداء الإيمان أقوى من كل مأساة:

ما انفك أريج محمد
يتضوّع مسكاً عبر سنين
يسكر كل الرواد
يطمس كل وقاحة
يزرع في قلب الأمة آمالاً كبرى
للبيت إله يحميه
يا حلفاء الشيطان
لم يبق سوى أصداء نباح
في محفل زيفكم الأكبر
يا صُنّاع الزيف
أنغام ثملى في حانة . .
ثعبان يرقص
«وامعتصماه»
صيحات في قلب برية
«وا إسلاماه»
صيحات ترعد وسط مقابر
أجيال حيرى تتحشرج
تبحث عن مخرج
عن صيحة بعث كبرى
تصدر عن قلب طاهر
يعرف معنى الحب
لم يسجد إلا لله

وحين ينهض هذا الإنسان وسط هذا العبث، وفي قلبه الإيمان والأمل، وفي جنانه العزم والثقة، وفي يديه القوة والتصميم، هذا الإنسان الطاهر الذي لا يسجد إلا لله، حينها تزحف رايات النصر، ويصمد

المقاتلون، ويستشهد في سبيل الحق والنصر أبطال، ويعود الحق إلى نصابه.

ويفتش الشاعر في مجتمعه العاثر، فلا يرى إلا صوراً مشوهة، صورة الأحزان والرعب والرذيلة:

الحيرة أمست أعلاماً
تخفق في دنيا الأحزان
والرعب يبدد كل رجولة
مات الإنسان الحق
في بحر الفلسفة الفجة
ماتت كل فضيلة
لرعاة الأغنام

ولا بد لهذه الأمة من وقفة عاقلة متأنية لتبحث وسط هذا الدمار عن طريق مستقبلها وحياتها دون زيف:

فلتبحث يا جيل الفتنة
عن درب الله المشرق
عن ينبوع يتدفق عدلا
عن شمس تولد في قلب الأمة
عن «فن الموت» الأعظم
في معركة الحق الخالد.

ومن أجل الظفر بالدرب القاصد، والأمل العذب المشرق.. ومن أجل كرامة هذا الإنسان المنكود، لا بد من ضحايا، ولا بد من عزيمة، ولا بد من وضوح وتصميم.

فلْيسقُط كل شعار
ينبع من قلب حقود

فلتسقط أعلام الفلسفة العرجاء
بل كل نداء
ينفخ في فكر الأحرار
ثمالة عجرفة حمقاء

* * *

ثم يمضي الشاعر لتلمس الأسباب الغائرة في قلب الجراح، ويخلع عن مشهد المأساة كل الأستار مهما بلغت الأحزان فلا بد من معرفة السبب، جذور السبب، لكي نستطيع التخلص من كل الكبوات، دون أن يلهينا ذلك عن مواصلة السير، أو يلفتنا عن الهدف البعيد:

يا جيل الأحزان:
حطِّم أسوار الخوف
انزع سوط الجلاد
وامض إلى الدرب الأخضر
وتسلح بالحب وبالإيمان.
يا جيل الأحزان:
لا شيء يقال
المشهد أقوى من كل كلام
من كل قصيدة
أو لوحة فنان ساحر
أو خطبة ثائر في حفل زاخر
يهدر كالرعد القاصف
طبل أجوف
المشهد أقوى من كل كلام
يا جيل الأحزان

* * *

هذا هو عصر الشهداء، عصر يشهد صراعاً دامياً، ويمتلىء بصور مرعبة، تغمره الأحزان والدماء.

لهذا نرى الإنسان المسلم ـ الشهيد ـ يثور على القيد، ويسعى لإعلاء قيم الإيمان، يزرع الحب والخير، ينتفض على الواقع المحزن ليطرد كل الدخلاء، كل الذين داسوا كرامة هذه الأمة في القدس وغير القدس، وفي كل أرض يغمرها نور الإسلام.

وفي قصيدة أخرى من هذا الديوان نرى شاعرنا يلمس بعض الجراح التي كبلت مواكب الحق وحالت دون تحقيق الخير لهذه الأمة فقال فيها:

أخـــي والسجـــن والجـــلاد مـــا صنعـــا فتـــى حـــرا
تعـــاليـــم الطغـــاة «الصيـــد» تـــردي القيمـــة الكبـــرى
تحيـــل الليـــث أرنبـــة، تجيـــد الـــذل والفَـــرَّا
سجـــلٌ حيـــاتنـــا عبـــرٌ، ومـــا مـــن قـــارىء يقـــرا

ومع هذا الواقع الأليم لا بد من العزيمة المؤمنة التي لا تخشى الصعاب. تسير فوق الأشواك وتحمل راية التوحيد، وتبذل الروح من أجل الحق.

أخـــي فلنمـــض عـــاصفـــة نغـــز الأرض طـــوفـــانـــا
أخـــي فلنمـــش فـــوق الشـــوك والآلام فـــرســـانـــا
ونحمـــل رايـــة التـــوحيـــد للثـــوار عنـــوانـــا
ونـــدفـــع عمـــرنـــا الـــدامـــع للـــرحمـــن قـــربـــانـــا

● وفي كل قصيدة من الديوان نلمح صورة للمجتمع الحائر، وفي عبابه الهائج يقف المؤمن منارة للحق والخير، فارساً يبذل الدم من أجل الحق، يحمل في يديه شعلة الإيمان والهدى. يعاني الصعاب ويصمد أمام العواصف، ويكون دوماً في طليعة الشهداء من أجل هذه الأمة.

● ووسط هذا المجتمع الذي تكالبت عليه الهموم والرزايا يقف

الإنسان المؤمن، يكافح بصمت أحياناً، ويستشهد من أجل القيم العليا التي تمثل حياة هذه الأمة ووجودها وكرامتها.

● في كل قصيدة من الديوان، شاكية أو عاصفة تلمح الصورة الإيجابية، أو خيطاً من هذه الصورة للإنسان المسلم وسط المجتمع الحائر، وهو يصرخ بأمته أن تنهض ويحمل راياتها للنصر.

● وفي الديوان نلمح الصورة الإنسانية الكريمة وهي تنفض عنها آثار الظلم والزيف، وتنهض لاستجلاء الصورة التي كرم الله بها هذا المخلوق.

● وشاعرنا دوماً مع هذا الإنسان، مع الحق من الأمل العذب والغد المشرق، مع فجر النصر والخير عبر هذا الظلام الدامس. والشاعر لم يكن مقيداً في ديوانه بأسلوب واحد، بل حرص على روح واحدة تنتظم الديوان كله تقريباً، وتصور المجتمع والأحداث الواقعية بنظرة المسلم الإيجابي وروح الشاعر.

● هذا الديوان ـ عصر الشهداء، بوضوحه ورموزه، بصوره المؤثرة، ولوحاته الناعمة خطوة في طريق الفن الإسلامي ونموذج من نماذج الأدب الإسلامي.

● والقارىء سيتذوق فيه طعم الإيمان، وحلاوة التضحية وروعة الشهادة في سبيل الحق، وانتصار هذه الأمة المنكوبة. وسيرى ـ أيضاً ـ تلك النغمة الصادقة والعبارة المشرقة والانطلاقة الواعية التي لا تحفل بالصورة التقليدية.

● إن هذا الديوان يبشر بأمل وليد للأدب الإسلامي الحديث، وهو خطوة في طريقنا الطويل الذي يترجم عن تصورنا للحياة، ويدعونا إلى مزيد من العطاء والإبداع[1].

---

(١) لا شك أننا بحاجة دوماً للتعريف بأدبنا الإسلامي، وهذا لا يعني أن هذا الأدب غدا سوياً، لا ضعف فيه ولا عيب، ومن خلال التجربة يقوى عوده إن شاء الله.

مع ديوان (عودة الغائب)
للشاعر محمد الحسناوي

واحة أخرى من واحات الشعر الإسلامي الحديث، نلتقي فيها مع الشاعر محمد الحسناوي في ديوانه «عودة الغائب».

والشاعر الحسناوي واحد من الذين يساهمون في تعميق المفهوم الإسلامي للأدب بشعره ونثره.

ومساهمته في هذا الباب كانت متنوعة: في الشعر والنقد، والبحث الأدبي والقصة.

وديوانه هذا خطوة في الطريق الطويل الذي يخطه الأدباء الإسلاميون ونموذج أصيل من نماذج الأدب الإسلامي الحديث.

* * *

يبلغ الديوان ـ في طبعته الأولى ـ واحدة وتسعين صفحة من الحجم الصغير، ويحوي أربع عشرة قصيدة، تتراوح تواريخها ما بين الأعوام١٩٦٠ ـ ١٩٦٩ م. وأكثر القصائد سبق للشاعر أن نشرها في عدد من المجلات[١]. ولقد اختار شاعرنا ـ كما قال في مقدمته ـ هذه القصائد من بين شعره الكثير الذي لم ينشر، لأنها تتقارب في الروح، والموضوع والإيحاء «ولأن خيطاً

(١) انظر مقدمة الديوان المذكور ص ٢٥.

واحداً ينتظم عقداً. . . ألا وهو ذلك الغائب الذي طال انتظاره»[1] والديوان مصدر بمقدمة للشاعر بلغت خمساً وعشرين من صفحات الديوان القليلة وكانت طويلة بالنسبة لحجم الديوان، لكن الشاعر أراد أن يلقي بها الضوء على مسار الأدب الإسلامي، وعلى صورته في العصر الحديث. لقد تحدث في المقدمة عن الشعر العربي عامة وحدد وظيفته «بالحداء للحياة» والتي هي جزء من وظيفة الفن بشكل عام.

ويرى أن الفن الإسلامي بدأ في دراسات الباحثين، وكأنه يسلك طريقين:

الأول: درس الفنون التي أبدعها المسلمون في الأدب والمعمار والموسيقى والرسم والخزف. . . معتبرين ذلك فنوناً، إسلامية.

والثاني: يلتمس الفن فيما تقدمه نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف ـ شكلاً ومضموناً ـ وأفضل السبل ـ في رأي الشاعر ـ هي الإفادة من الطريقين السابقين، مضافاً إليهما التجارب الفنية الجديدة[2].

ويستعرض مسيرة الشعر الإسلامي عبر التاريخ بصورة سريعة، فيرى أن الإسلام ألغى المفهومات الجاهلية في الشعر، كالفخر بالأنساب، والتنابز بالألقاب، وإثارة الفتن، وحال دون الفحش في الغزل والكذب في المديح، وأعطى الشعر ألفاظاً وتعابير، وصوراً وموضوعات جديدة، لكنه لم يجري تغييراً واسعاً في شكل الشعر الجاهلي.

ويبدو أن الشاعر ـ مع غيره ـ يرى أن تغيير الشكل ضرورة من ضرورات التغيير العام الذي أحدثه الإسلام في الحياة، وهذه النظرة تبدو غير دقيقة، لأن الإسلام لم يرفض الصالح، والخير، والحسن، مهما كان

---

(١) المقدمه ص ٢٥.

(٢) المقدمة.

مصدره، إنه انتقى كل ما كان جيداً، وغيّر الفاسد، والضال الذي لا يوافق العقيدة، وربط الحياة كلها بالمحور الثابت وهو الواحدنية، لذلك ليس طبيعياً أن تتغير صورة الشعر العربي بعد الإسلام، بل إنه من الخطأ أن ننظر إلى التغيير بأنه علامة صحة، ودليل نضج، ولعل الموجة الجديدة للتخلي عن كل صورة من صور الشعر القديم هي التي دفعت كثيرين من الباحثين والأدباء لمسايرتها بنسب متفاوتة، ورغم الضجة التي أثيرت حول هذا الشعر ما بين الخمسينات وأواسط الستينات فإن هذه الموجة بدأت بالانحسار.

ويعترف شاعرنا بأن محاولة التجديد في العصر العباسي قد أخفقت لأنها كانت صادرة عن روح شعوبية.

وأما في العصر الحديث فيذكر أن «أحمد علي باكثير» كان على رأس الشعراء المجددين الذين كتبوا في شعر التفعيلة. وبعدها انتشر في العراق ومصر ولبنان وغيرها من الدول العربية.

وحين يعود لرصد الشعر الإسلامي يلاحظ غياب هذا الشعر رغم بقاء أطيافه وظلاله في أشعار عدد من الشعراء القدامى مثل: علي بن الجهم وشعراء الخوارج، والشيعة والمتصوفة.

ولا أدري، هل وصل الشاعر إلى هذه النتيجة، بعد الدراسة المتأنية الشاملة، أم كانت قفزة متسرعة، وصل إليها في عجلة من الأمر، حيث لا يمكننا الركون إلى كثير من النتائج والدراسات الأدبية الحديثة التي تناولت بالدراسة العصور الأدبية المختلفة.

ولا أستطيع تحديد النتائج التي يمكن أن يتوصل إليها دارس مسلم، ينظر إلى الأدب وتطوره من خلال التصور الإسلامي، ولكني على يقين، بأن كثيراً من النتائج التي توصل إليها الدارسون لهذا الأدب لن تكون صحيحة، وكذلك فإن تقويم هذا الأدب وصورته سوف يختلف عما يصل إليه هذا الدارس.

ولا بد أن يخرج بنتائج تظهر أثر الإسلام وتصوره في هذا الأدب، بل لا بد أن يجد الدارس نصوصاً وشعراء لم يأبه لها الدارسون لأنها لم تنتظم في صفوف التطور السياسي الذي اعتمد أساساً للدراسات الأدبية.

ولعل العودة إلى التراث من منظار إسلامي واعٍ يفتح الباب أمام نتائج جديدة لم تكن في الحسبان.

ثم يحدد الأسباب التي أدت إلى غياب الشعر الإسلامي بما يلي:

١ ـ سوء فهم، الحرص على لغة القرآن الكريم، الذي أورد التمسك بالأدب الجاهلي مثلاً أعلى.

٢ ـ انبعاث الجاهلية في شعر النقائض، وتحول الخلافة إلى ملك عضوض يتخذ من شعراء البلاط وسيلة من وسائل الاستمرار.

٣ ـ خطأ الاعتقاد بعداوة الإسلام للشعر...

٤ ـ انحراف مهمة الشعر لسوء فهم وظيفته... ولغلبة الروح الغنائية عليه.

ورغم وجاهة هذه الأسباب، فإن شاعرنا منذ البدء يرى أن تطور الشكل مع المضمون أساسي في تغير الشعر وتأثره بالإسلام، وإلا فلماذا ننعي على الشعراء تمسكهم بالشكل المعروف للقصيدة العربية، والتي كانت ملتصقة بحياتهم ونفوسهم وواقعهم.

ورغم كل ما شهدنا من تطور للشعر فإن القصيدة القديمة، وما سار على منوالها ظل أثراً ممتازاً، يعترف بقوة بيانه القدامى والمحدثون، رغم مطاعنهم لأمور أخرى.

بل إن من الحرص على لغة القرآن الحرص على الجملة العربية، والبيان العربي في أشكاله المختلفة، والتي كانت أشعار الجاهليين تشع من خلاله وبه.

بـل وما علاقة شعر النقائض وتحول الخلافة إلى ملك أو الاعتقاد بعداوة الإسلام للشعر بالمحافظة على القصيدة القديمة.

إن الذين طوروا القصيدة، وخرجوا عليها هم الذين شذوا في السلوك والاعتقاد أحياناً.

وإن هذه العوامل التي ذكرها شاعرنا جديرة بأن تؤثر في المضمون أكثر من تأثيرها في الأسلوب.

ثم ينتقل الشاعر إلى التقرير بضرورة إبداع شعر إسلامي جديد يتفق مع التصور الإسلامي ويعبر عن تجربة المسلمين وأحاسيسهم واستعداداتهم، وظروفهم وميولهم الجديدة، دون التقيد بشكل معين أو تقليد نموذج محدد.

ويكفي التمسك بوحدة الجوهر الذي يتفق مع التصور الإسلامي القائم على «الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت» وبذلك يجدد الدعوة مع الداعين إلى إيجاد شعر إسلامي حديث، له سماته وأصوله ويتميز بجوهره الإسلامي المعبر عن التصور الإسلامي الواضح. ويستعرض عدداً من كتابات الإسلاميين حول مفهوم الأدب الإسلامي ويلاحظ فقرها بالنصوص التطبيقية، ويضع ديوانه هذا ـ مساهمة في هذا الاتجاه.

ثم يعدد ـ بعدها ـ المشكلات التي تعترض الشعر الإسلامي الحديث فيرى أبرزها: قضية الالتزام، وشعر التفعيلة.

ويرى أن قضية الالتزام قد فرغ النقاد من بيان ضرورتها ويرى ما يراه سيد قطب ـ رحمه الله ـ عن معنى الالتزام «لست أعني التوجيه الإجباري على نحو ما يفرضه أصحاب مذهب التفسير المادي للتاريخ، إنما أعني أن تكيف النفس البشرية بالتصور الإسلامي للحياة، وهو وحده سيلهمها صوراً من الفنون غير التي يلهمها إياه التصور المادي، أو أي تصور آخر، لأن التعبير

الفني لا يخرج عن كونه تعبيرا عن النفس، كتعبيرها بالصلاة أو السلوك في واقع الحياة»[1].

ومع وضوح معنى الالتزام في الشعر الإسلامي لا بد من توضيح مهم عن الأديب الملتزم بالذات، حيث أن الأدب الإسلامي ـ الذي نريده ـ لن يصدر إلا عن ذات مسلمة بتصورها وسلوكها، لهذا تبقى قضية الالتزام مرتبطة بمدى التزام صاحبها بالإسلام عقيدة ومنهجاً، ومدى قدرته على التعبير عما يريد من خلال التصور الإسلامي.

وإن أي غبش في التصور، أو تشويه في المفاهيم والاعتقاد، أو شذوذ في السلوك، أو انهزام في الضمير والروح سوف يؤثر على جوهر الالتزام.

هذه الإضافة ـ أجدُها ـ ضرورية حتى لا يظن القارىء أن التزام الأديب المسلم كالتزام غيره من أصحاب المذاهب والمدارس المختلفة، أولئك الذين يخدعون الناس، ويبذرون الشكوك، فيكون الانفصام بين ما يقولون وما يعملون كبيراً، ولأن غايتهم أن يشيع الانفصام المذكور، وتعم صورة الخداع والكذب.

وفي مرحلة التأسيس والبناء، لا بد من الصفاء والتميز والوضوح، ولا بد من القوة في ترسيخ المبدأ الذي ينفي الشوائب والضعف والثغرات، لهذا لا بد من وضوح الالتزام بهذه الصورة، حتى لا تتسلل إلى الأدب الإسلامي الذي بدأ ينبعث من جديد الصور الشوهاء، والتجارب الواهية، والتصورات الخاطئة.

* * *

ويعود الشاعر ليبحث قضية الشعر الجديد فيرى «أن الفن ـ والشعر فن ـ محكوم باستعدادات المبدعين، وبتجاربهم الفردية أو الجماعية، وبظروفهم الحضارية بقدر ما هو محكوم أو مستهدٍ بالتصور للحياة ولوظيفة الفن».

---

(١) النقد الأدبي ـ أصوله ومناهجه.

أما مسؤولية الأديب المسلم فهي: «الفنان المسلم ـ وهو حادٍ للمسلمين بخاصة ـ مطالب بالصدق للإسلام الذي يطالبه بالصدق مع نفسه ومجتمعه وعصره، وأي صدق في تحديد حرية الإسلام وحرية المسلمين»؟

«حرية الإسلام في أن يبدع ويشكل الحياة ليسود، وحرية فنانيه في أن يبدعوا ويعملوا على تشكيل الحياة الإسلامية بطرقهم الخاصة» ثم يعدد بعض القضايا الفرعية التي يثيرها شعر التفعيلة، ونلخص رأيه بما يلي:

١ ـ قصيدة النثر «الشعر شعر، والنثر نثر، ولكل منهما حدوده وأنواعه، والشعر لا يخلو من وزن وقافية، أية قافية ولا بأس بكتابة ما يسمى «بالشعر المنثور» ولكنه سيظل في نظري نثراً».

٢ ـ جدوى عروض الخليل وهو «ذخر ثمين يظل نُسُغاً للشعر لا بد منه. لا سيما الشعر الحديث».

ويترك مصير شعر التفعيلة للشعراء المبدعين في النهاية، واختيارهم الحر الصادق.

٣ ـ ويشير إلى قضية هامة وهي الطوابع الغربية، مثل المفهومات والمصطلحات غير الإسلامية التي وقع فيها شعر التفعيلة، كالرموز المسيحية، والآثار اليونانية، وبدع الثقافة الأجنبية المريضة.

ثم يختم هذه المقدمة بتعداد بعض خصائص اللغة العربية مثل تميُّزها وانفرادها بالوزن والقافية، وأثر العروض والشعر العربيين في الغرب، وأن الشعر ليس نوعاً واحداً، وكذلك ميزة الانفتاح الواعي على التراث العالمي. هذه المقدمة التي بدت ـ مع مقارنتها بمجموع الديوان ـ طويلة، كان لا بد منها ـ بالنسبة للشاعر ـ كي يلخص لنا رأيه في عدد من القضايا التي يطرحها النقاد والأدباء حديثاً.

وإذا لم يكن قد وصل في بعضها إلى الرأي الواضح فقد أسهم في ذلك إسهاماً جاداً، واجتهد ما وسعه الجهد، على ضوء التجربة التي مارسها في هذا الديوان وغيره.

* * *

مع قصائد الديوان

لعل طابع الديوان ذلك البحث اللاهث عن الغريب «الغائب» هذا الإنسان المطارد، المتمسك بعقيدته، الواعي لقوله ﷺ «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء».

لهذا تبدو على قصائد الديوان مسحة من الحزن العميق، حزن لا يبدو دامعاً باكياً، مسفوحاً بلا هدف، أو ثورة غاضبة، إنما يبدو في ذلك البحث الصادق عن الإنسان المتوازن، عن كرامته، وقيمة الإنسانية التي لم تتقرر في شيء كما قررها الإسلام قولاً وفعلاً.

لكن هذه المسحة الناعمة من الحزن لم تطغ على نظرة التفاؤل والأمل، ولم تمنع ظهور العزم وروح الثبات، وحرارة الإيمان، واستمرار الكفاح لعودة الغريب من جديد، لصياغة الحياة الإنسانية على هدى السماء وإسداء الخير للإنسانية، وتحقيق الطمأنينة في هذه الحياة.

ولسوف أستعرض عدداً كبيراً من قصائد الديوان لتلمس الخط الذي يربط بين هذه القصائد، ولاستخلاص المميزات الخاصة به.

في القصيدة الأولى «زهرة» نراه يرمز إلى تراث الإسلام ومآثره وحضارته بهذا اللفظ، ومن خلال نغمة حلوة، وكلمات سهلة، وانسياب عذب يستعرض هذه المآثر فيقول عنها بهذه النعومة الواضحة:

زهـــرة مـــن ألـــف زهـــرة حملـــت للـــروض فكـــرة

وهذه الزهرة تمثل الفكرة أيضاً، في رحاب الحياة العريضة، لذلك صنعت الحياة من جديد، أحلى وأشهى ما تكون الحياة، حياة الفردوس:

ولقد تُوجت وحياً يشتهي الفردوس عطره

لكن الفكرة عادة غريبة، ورنا إليها الحاقدون بأعين الحسد والغيظ والمكر:

ثم عادت، يا لعود حبس الواشون نشره
كغريب تاه يوماً فهداه الله بدره

ومع ذلك ففي هذه الصورة ـ الرمز ـ أمل ما يزال يوحي بالهداية ويشع بالخير والنور، لذلك يدعو السائرين إلى العمل، وإلى عودة هذه النبتة من جديد لتثمر وتظلل الحياة:

أيها العصفور غرد وانقر الأغصان نقره
نسي الروض شذاه وتناسى الدوح طيره
أيها العصفور صَعِّدْ في مدى الآفاق نظره
هل ترى مثلي ربيعاً هاوياً عبر المجره

ويختم القصيدة بهذا النداء، والاستنهاض:

يا بنات الشوق هلا ذكر الغائب هجره
كيف لا يذكر يوماً كان دنياه وخمره

فهل يسمع المسلمون هذا الهتاف الموقظ؟ وهلا نظر إلى واقع الإنسانية الشقي ليعرف نعمة الله في هذا الدين؟

وهل سيعود هذا الغائب الغريب لكي يقوم بمسؤوليته الحقيقية في الحياة.

إن هذا الرمز اللطيف، واللازمة الشجية، والتساؤل الحزين، كل ذلك يعكس غربة المسلم، وغدر الطغاة، وشدة المحنة. وكذلك يترك في الضمير صرخة ونداءً يحمل ذلك التساؤل الملحاح عن عودة المسلم إلى الحياة.

وفي القصيدة الثانية يُجري الشاعر الحوار بين البحر والنجم، حيث يتحدث البحر عن روائع الحضارة الإسلامية، وأثر العقيدة الإسلامية في الحياة، ويتحدث النجم عن مكائد الغزو الصليبي ومكر أعداء الإسلام من الجاهليين والمنافقين:

ما عرفت الضياع منذ احتواني ... وأذان الحياة في أجوائي
فاتحاً يعمر القفار ويبني ... بيد الله دولة العظماء
والحضارات رشها حول مهدي ... وارفات الظلال والأرجاء

ولا غرابة في ذلك، لأن صانع هذه الحضارة فيه جذوة الشمس، ورحابة الصحراء، وطموح الفاتحين، وصدق الأنبياء:

فيه من جذوة الشموس نهار ... ومن البأس شدة الصحراء
سابحاً يركب الرياح مطياً ... ويسوق الزمان سوق الإماء
بيته في الحجاز عرشٌ منيف ... وهواه في حالق الجوزاء

لهذا كانت حضارته نوراً في القلوب، ونوراً في العقول، وثماراً ناضجة في الحياة، وأملاً في المستقبل، وجنة ورضواناً عند الله عز وجل.

فلقد شيدت على العلم والنـ ... ـور جيشاً لنصرة البؤساء
فمشى الكون خلفنا، بل جرينا ... فلكاً واحداً شديد البناء
نعبد الله غدوة وعشياً ... بفؤاد الهوى وعين الوفاء

هكذا أثمرت الفكرة حضارة ومجداً، وعيشاً رخياً.

قيل: هذا الوئام دام طويلاً ... ألف عام وألف عيش رخاء

هذا حديث البحر: حديث الأمة التي عاشت بالعقيدة، وأقامت الحضارة. أما النجم، حيث ينظر من علٍ إلى ما يجري في ساحة الكون أمامه، فها هو يضحك حزيناً ليحكي قصة المؤامرة المستمرة، والمكر الخبيث على الإسلام:

قد عرفت العداة يوم تنادوا ... بأساطيلهم لحرب الفناء

يـوم جـروك عنـوة كـل مجـرى وأرادوك مـــركبـــاً للشقـــاء

وعرف البحر هذه القصة، رأى الدماء تغطي وجهه الضحوك، وأحس بالألم في أحشائه الممزقة، وتحسس أثر السهام الغادرة، فإذا به ينظر إلى المستقبل بحذر:

أيهـا النجـم سـوف يـأتيـك والصـا روخ نعـــي الحيـــاة والأحيـــاء

فدمار الحياة الحديثة سيكون على يد العلم الذي عبدوه من دون الله، وتشويه وجه الحياة سيكون بأظافرها الحيوانية.

إنها النتيجة المنتظرة لتخلي الإنسان عن عقيدته، وعبادته للمادة، ولا بد من منقذ قبل أن تحل الكارثة:

والـذي يمسـك الـدمـار عـن الكـو ن ويجلـــو جهـــامـــة البـــأســـاء
هـــو مـــن أســأل الـــوجـــود عليـــه وعليـــك الغـــداة حـــط رجـــائـــي
فـارس، سـاحـر، عـريـق البهـاء مـــؤمـــن، عـــادل، نبـــيّ السخـــاء
فيـه مـن جـذوة الشمـوس نهـار ومـــن البـــأس شـــدة الصحـــراء
سـابحـاً يـركـب الـريـاح مطيـاً ويسـوق الـزمـان سـوق الإمـاء

وهذا هو الغائب الذي ينشده الناس، وتحنّ لعودته البشرية لكي تعود البسمة ويبعث الأمل:

سيعـود الحبيـب عـود السنـونـو وتعـــود الحيـــاة عـــود الضيـــاء
هكـذا الشمـس جلـوة وكسـوف وذكـــاء فـــي القبـــة الـــزرقـــاء

* * *

وفي قصيدة أخرى «السائح» يقارن بين حضارة الإسلام أو حياة الفكر، وحياة المادة ـ الحضارة الحديثة:

والسائح هو ذلك الغريب الغائب الباحث عن الحياة، وعن العقيدة، وعن الحضارة العظيمة التي ملأت السهل والجبل والبر والبحر، ومضى بعدها يرجو عودة الغائب الذي افتقده بعد حين.

وانتهى السائح يرجو غائباً كان أضلاَّ

ولكنه لم يعثر على الغائب، حيث تبدلت الحياة التي ألفها، وحلت بدلها مظاهر جديدة:

وأتى السائح يوماً عالماً فذاً عجيبا
شمسه وجه كئيب لا فظ وجهاً كئيبا
وثراه كسماه ممطراً شؤماً وحوبا
وجبالاً تتمطَّى تنطح الغيم الصليبا
وعيوناً تتشظَّى ترشق الجوَّ ندوبا
وضجيجاً وعجيجاً ولهيباً ونحيبا
خِدَعٌ هذي تراءت أم نشور قد أجيبا؟

فالضجة، والمادة، والصواريخ، والذرة، وجبال الحديد، والخوف والقلق، والصراع الوحشي، كل ذلك من مظاهر هذه الحضارة، وكلها تسعى لقتل الإنسان، ولا تترك له إلا التعاسة والقلق، إنها تغرقه في ذلك الجحيم المادي الملتهب، وتحول الإنسان إلى ذئب همه أن يفترس، ويغنم من المادة، ليشبع فمه وفرجه، ويهرب من مآسيه بالخمر، واللهو والقمار، والنتيجة هي ذلك الدمار وتلك الرذائل، وهذا الضياع:

فإذا الناس ذئاب تعمر القفر الجديبا
وكهوف وسقوف تنثر العقم ضروبا
وخمور وخصور تطمس اللب اللبيبا
وقمار ودمار سحبا ذيلاً رهيبا
وخصام وصدام أورث الحقد نسيبا

لهذا ظل السائح الغريب يبحث عن نفسه، يبحث عن العقيدة التي غابت عن مسرح الوجود، فحلت بالإنسان التعاسة والشقاء، واكتوى بالصراع والقلق.

ومن أجمل قصائد الديوان هذه الصورة الواقعية البسيطة التي صور بها المجتمع «الإمّعة» الذي تتحكم به المادة أو اللذة، أو حب الشهرة، أو أي شيء من المغريات، فيخضع للمستبد، ويبيع إرادته لمن فوقه، ويتبع السلطان مهما كان:

نحن القطيع

إن أحسن الناس ... كنا مع الناس
أو في الخنا جاسوا ... سرنا على الراس
هل يدفع الباس ... طوفان أرجاس

نحن القطيع.

وهذه الصورة قريبة من صورة «الكبش» التي ترمز للحياة الخانعة، حياة التسليم بالمذلة، والخضوع للظالم، والسكوت عن كل آثم وفاجر، حتى لا ينفع مع ذلك غضب طارىء أو حث دائم، لأن الخوف يملأ القلب، ويسري مع الدماء، ولهذا يؤثر الفرد «الكبش» السلامة وينسى الكرامة، ويرضى بالمذلة مخافة الخطر.

وصحا الكبش وحيدا ... والصدى يغشى رقودا
سمعوا الصوت ولكن ... سلخ الهولُ الجلودا
إن من عاش خروفاً ... مات شيباً أو قديدا
وسيرعى الذئب بغياً ... ما رعى الكبش القيودا
فإذا مَلَّ القيودا ... حطم الظلف الحديدا

* * *

فالذل والذبح قرين الاستكانة والخنوع. والحرية والكرامة سبيلها الإباء ورفض القيد، ورفع راية الجهاد ضد الطغاة.

من خلال هذه الصور المظلمة، ومن واقع المجتمع ذاك، يتطلع إلى مستقبل مشرق، يود أن ينهض، ولا بد للنهوض من وعي وعزم واستعداد:

فـــإلـــى البحـــر إلـــى كنـــز الـــلآلـــي

علَّنـــي ألقـــى علـــى تلـــك الـــرمـــال
دُرَّتـــي، لـــؤلـــؤتـــي، بعـــض ظـــلال
فـــإذا القـــرصـــان يلقـــي بـــالحبـــال
وأرانـــــــي فـــــــي الجحيـــــــم

والظالم الباغي سيظل الصنم والقيد والقهر، يترصد المؤمنين في كل حركة، حتى تستطيع أن تعلو باسم الله، بالعزيمة والجهاد.

وفي قصيدة «عودة الليل» - وهي أكثر القصائد إغراقاً بالحزن والألم، وأكثرها دلالة على الواقع، وإيحاءً بالمعاناة - في هذه القصيدة يصور المجتمع الحديث بانحرافه وظلمه، بمناهجه الأرضية المتعسفة، ومن خلال ذلك يرى الغارة الغادرة على الإسلام، والحقد الأعمى على المسلمين، ولكن هذا لا يطفىء أمل المسلم في انتصاره على أعداء الله، أعداء الإنسان والخير، وهذا الجنون الظالم يبشر بعودة المسلم لبناء الحضارة الإنسانية من جديد.

الليـل عـاد، كـأمسـه، عبـر النـوافـذ والسـدود
وكفـاتـح عـرف الطـريـق فـراح يـزحـف بـالجنـود
بـالخمـر، بـالخـدر اللـذيـذ، وبـالنعـاس وبالهجـود

* * *

الليـل عـاد كعـودة العصبيـة العميـاء تـزخـر بـالعبيـد
بـالشـرك، بـالأحجـار، بـالأوهـام، بـالفكـر البليـد
بـالجـاهليـة، بـالخمـور تمـور... بـالـوأد الجـديـد
بـالظلـم، بـالأحـلاف، بـالأشـراف، بـالغـزو النكيـد
فليطمـس النـور اليتيـم، علـى حشـاشـات الصعيـد
وليصلبـنَّ، كـآل يـاسـر، أو خُبيـب فـي الشهـود

ويعدد صورة المخازي العصرية، والمآسي التي لفّت المجتمع وغرزت أنيابها السامة في روح الأمة، ومع ذلك فإن ظلمة الليل، واشتداد الهول يبشر ببزوغ الفجر، وتحقق الأمل، فالشمس لا تزال تشرق مهما طال الليل.

والفجـــر، يـــا للفجـــر، أغنيتـــي وأغنيـــة الجـــدود
ستعـــود بسمتـــه تـــرفـــرف، فـــي الـــوهـــاد وفـــي النجـــود
سيغـــرد العصفـــور للحقـــل الملـــوح، بـــالحصيـــد
وأنـــا، وأنـــت، وأمتـــي ميعـــادنـــا نقـــرات عـــود
أو مـــؤمـــن بـــالله سقَّـــاه الهـــدى كـــأس الشهيـــد

والقصيدة مشحونة بحرارة العاطفة الإيمانية التي جعلت صورها تتداعى قوية، حارة، موحية. إنها نبرات صافية، وصورة مؤثرة، وصرخة صادقة.

وتهدأ أنفاس الشاعر، فيعود إلى ذلك الخيط الرفيع حزيناً كئيباً ليرى شريطاً من الذكريات الحبيبة وقد أفلت، وصوراً لآثار العقيدة في كل مكان.

فقرطبة رمز الحضارة الإسلامية في امتدادها نحو الأفق الغربي وبعد سنوات السقوط تشكو المآسي الموجعة، وتذكر أبناءها النيام:

لا تســـلْ مـــن هـــدَّنـــي وســـرابـــاً ردَّنـــي
لا تســـل عـــن حـــاســـدٍ بعبيـــري سمَّنـــي
ومـــن الثـــدي الـــذي كنـــت أصفـــي عضَّنـــي
لا تســـل عنـــه، فمـــا عجبـــي أن عقَّنـــي
إنمـــا يجـــرحنـــي مـــن تنـــاســـى (قـــرطبـــة)

* * *

ســـل إذا شئـــت القـــدر كيـــف مهمـــازي انكســـر
سلـــه عمـــن أخلـــدوا لأراجيـــح الخـــدر
ونســـوا بلـــدانهـــم مشـــرعـــات للخطـــر

وفي قصيدة «أبناء بلال» يعطينا نموذجاً حياً لتكريم الإسلام للإنسانية

ومساواته بين الناس، وعدم التمييز لمال أو لون أو عشيرة، لهذا كان بلال سيداً بعد أن حرره الإسلام وأعطاه قيمته الإنسانية، ورفعه ليصبح سيداً للعظماء والصالحين، والشاعر يتصور زنوج أميركا يهتفون باسمه رمزاً للكرامة والحرية بعد أن ذاقوا ظلم المدنية الحديثة، والقصيدة تعطينا صورتين: صورة الإنسان في ظل العقيدة، وصورته في ظل المدنيات المادية، وما أبعد الفرق بين الصورتين:

جـــدنـــا كـــان بـــلال كـــان مـــن لـــون الظـــلال
كـــان مجهـــول الخصـــال بِجِبِـــلَّات الجمـــال
صـــادقـــاً عـــف المقـــال فـــي مـــزاح وجـــدال

* * *

مـــؤمنـــاً يثنـــي الجبـــال إن تحـــدّاه الضـــلال

أما نظرة الحضارة الحديثة للإنسان، فهي نظرة المهانة والذلة والاستعباد، إنها جعلته أدنى من الآلة والكلاب.

أيـــن منـــا جـــدنـــا والـــدواهـــي حـــولنـــا
مِـــنْ مُعيـــب لـــوننـــا مستـــثيـــر حقـــدنـــا
معـــرض عـــن دربنـــا مستقـــل حقلنـــا
هـــادم مـــا فـــوقنـــا ســـارق مـــا تحتنـــا

والمسلم مسؤول أمام الله عن نفسه وعن هذه الإنسانية المنكوبة بالمدنيات الحديثة، والمناهج الوضعية، إنه يرى كيف يُقهر الإنسان لسواد لونه أو لقلة ماله، أو لضعف مكانته:

مـــا الـــذي ميّـــزنـــا أبيضـــاً مـــن أســـود؟
مـــا الـــذي صيَّـــرنـــا قشـــة فـــي فـــدفـــد؟
والـــذي ينسبنـــا (آدم) فـــي المحتـــد
وأب أدبنـــا بمثـــانـــي أحمـــد
جـــلَّ مـــن كحلنـــا بسمـــاء الفـــرقـــد

قـــــد نعمنـــــا زمنـــــاً بظـــــلال المسجـــــد
وصلبنـــــا زمنـــــاً بشمـــــوس الملحـــــد
سنـــــري سيـــــدنـــــا كيـــــف بـــــأس السيـــــد
مثلمـــــا أبلـــــى بـــــلال

* * *

وهذا هو إنسان العصر يبحث عن السعادة المفقودة: في العلم، والزينة، والفلسفة، والخمر، واللذة، ولكنه لا يجني غير العلقم، فيخيب ظنه، ويفقأ السراب عيونه، ويقنط من فلسفات العصر المجنون:

قال: الخدر

يجلو الكدر
وَيُعـــوِّضُ الإنســـان عمـــا فـــاتـــا
عمـــراً تـــولـــى، أو حبيبـــاً مـــاتـــا
فـــاشـــربْ وخـــلِّ المـــوت والأمـــواتـــا

لكن المسلم ـ وهو العاقل العادل ـ لا يجد في البعد عن الله أية جدوى في سعادة أو كرامة أو نجاح.

قلت: السمر

السمر مثل الخدر مثل السفر مثل الغجر
سفـــر بـــلا هـــدفِ عيـــشٌ علـــى جـــرف

* * *

وفي قصيدة «هموم الحياة» يجول الشاعر في حنايا المجتمع، ينظر حواليه فلا يجد إلا صوراً من المآسي، وألواناً من الشقاء، صور الأقربين والأبعدين، صور الذين آمنوا بدين الله إيماناً صادقاً، وصور الذين أنكروا الدين وكفروا بالله سبحانه، كل هذه المشاهد تورث قلب المسلم الواعي هماً، وتشحن النفس بالحزن.

أنـــا لـــو تسبـــريـــن عـــور قـــراري
أو تشيميـــن بـــارقـــاً مـــن ثـــاري
لفككـــت الإســـار بعـــد الإســـار
وطلبـــت النجـــاة قبـــل البـــوار

أية صورة من المأساة هذه التي يعيشها الإنسان المعاصر؟

ها هو الشاعر يرقب الأعداء وهم يطعنون كرامة الأمة، ويدوسون مقدساتها، ويقتلون أبناءها.

أنـا كـالنسـر أرقـب الجـرذ تلهـو بفـراخـي تعـضُّ مـن أظفـاري
تبتنـي جحـرهـا بمفـرق رأسـي وتـذود الهـواء عـن منقـاري

وما أقسى صورة الأقربين الذين غفلوا عن الواجب، واستهوتهم الحياة الدنيا، فضاعوا بين لهواتها.

وأخ ســـادر يعـــدّ الـــدراري
فـــي عيـــون المهـــا وحـــب النُضـــار
خلبتْـــه بهـــارج الأنـــوار
عـــن ســـراب المنـــى وراء الخمـــار

وقد ينزوي المسلم بين رفوف الكتب، ويهرب من الجهاد طلباً للسلامة:

أشـرع السـور للضيـوف ألـوفـاً كـرمـاً سـابغـاً، وحسـن جـوار
ورفـوف العلـوم صـارت دفـوفـاً أيـن منهـا عـرائـس الأفكـار
رقصـت أختُـه، وطـاف بنـوه بشـراب مُصَفّـفٍ بـالعـار

ومع ذلك فالمسلم لا ييأس من روح الله، وربنا قادر على أن يطيح بكل العوائق حين يصح إيمان الدعاة، وعزائم الصاعدين لرضوانه:

إن قلبـاً سمـا إلـى الجبـار لمطيـح بغـارة الأخطـار

* * *

وفي قصيدته «إنسان العصر» يعدد مخازي المدنية الحديثة، المدنية المادية التي كَبَّلت الإنسان بالقيود، وداست كرامته ورفعت قيمة الجنس والمادة إلى قيم العقيدة والكرامة الإنسانية، وعاشت في دهاليز الدعارة، والبغاء التي أطلقوا عليها، اسم الفن، فغدا الإنسان عبداً لشهواته، وامتلأ قلبه بالخوف والجبن، وشُغف بحياة الدعة واللذة العاجلة:

أَمَـا عُبِـدَ المـالُ دون الإلَـه وزُيِّـنَ للنـاس طـولُ الأمـل

لقد عرض الشاعر في القصيدة صوراً من الحياة الحديثة وفلسفتها، وخدعتها الكبرى للناس باسم العلم والتقدم، وادعاء أصحابها بأن العلم نقيض الدين، وبلغ الإنسان العصري في غروره حد الجنون، لهذا أصبح الاختيار ضرورة حياتية، والطريق لهذا الاختيار بيِّن واضح.

أحـس بـأني عبـد الجنـون فـإمـا إلـه وإمـا همـل

* * *

وفي القصيدتين الأخيرتين «بين كتابين» و «هو وهي» لا يخرج الشاعر عن إطار قصائده الأخرى، فهو يقارن بين منهج الإسلام وحضارته، وبين مناهج الأرض وحضارتها المادية، يأخذ كثيراً من الأمثلة والآثار ليذكر الإنسانية بها، ويود أن تصحو من جديد، وصرخاته ونداءاته تسعى لإيقاظ المسلم، وصحوة الإنسانية. والقرآن الكريم حين يتحول إلى واقع حي متحرك، ويتجسد بأفعال الرجال وسلوك الناس، حينها تبدأ مسيرة الإنسانية من جديد نحو الخير والحضارة.

* * *

بعد هذه الجولة السريعة في هذا الديوان «عودة الغائب» نقف عند بعض الملاحظات التي يمكن الوصول إليها من دراسته.

١ ـ هذا الديوان ـ ولا شك ـ واحد من الدواوين الشعرية الإسلامية المعاصرة التي تلتزم التصور الإسلامي في التعبير عن الحياة، والتفاعل مع

المجتمع والنظر إلى شتى الأمور، وهو يضيف أثراً جديداً في الأدب الإسلامي الحديث، ويدفع بمسيرته إلى الأمام خطوات، بل ويسهم في محاولة التأصيل لهذا الأدب من خلال المقدمة التي كتبها الشاعر، والتجربة التي قدمها بهذه القصائد.

٢ ـ ولقد استطاع الشاعر الحسناوي في ديوانه المحافظة على وحدة الموضوع للقصيدة، ووحدة الهدف لقصائده جميعاً، لقد ربط القصائد كلها ـ تقريباً ـ بخيط واضح، من أُولى القصائد وإلى آخرها، ومع أنه لون صوره، وعدد ألوانه، لكن هذا التلوين والتعدد، لم يضيع الهدف أو يخفي الموضوع، وبقيت صورة الغريب «الغائب» المطارد، ذلك الأمل، والمنقذ، واضحة في هذه القصائد.

إنه مطارد أحياناً، ومنفي أحياناً أخرى، ومترقب، ومتفرج، إنه حزين، وجريح، أو باك، أو متأمل ومتحفز، لكنه في كل ذلك ظل موجوداً.

٣ ـ والقصائد توحي بمشاعر الحزن والمأساة التي تعكسها صور الواقع الممزق، والبعد عن منهج الله سبحانه وهداه، إنه جو الألم، والحسرة، والغربة، وقسوة الواقع.

ولكنه في الوقت ذاته، ترك فسحة من الأمل ليطل منها الغريب دوماً، تتدفق منها حزم الشمس الباهرة، والدفء والأمل، إنها العقيدة التي ترسم الطريق والخلاص.

ولا يعني هذا أن هناك روحاً من التشاؤم تخيم على هذا الشعر، وإنما كانت هناك مسحة من الحزن، وغلالة شفافة من الأسى، وأنغام عذبة حزينة تنساب من بين الكلمات والأبيات.

٤ ـ وهناك قربى بين عدد من القصائد، في موضوعاتها وأفكارها، وربما نرى أحياناً نوعاً من التكرار لأنه يلح على تصوير الواقع لكن الشاعر أعطى لكل قصيدة لوناً، واستعمل رموزاً مما أدخل الجدة على هذا النماذج.

٥ ـ والشاعر متعاطف مع الحياة والطبيعة، يأنس بها، ويرمز بأسمائها، ويحاول أن يصل إلى موضوعه من خلال صورها، ويتركها تتحدث عن الحياة بأسلوب تصويري حي، ورمز محبب، «فالنجم، والفجر، والغابة، والكبش، والقطيع، والذئب، والعصفور» كل ذلك بدا واضحاً في شعره، وصوراً رمزية لموضوعاته.

وليس هذا غريباً، فالطبيعة تنسجم وتتناسق مع فطرة الإنسان، فإذا نطقت فلن تنطق إلا بحقائق الفطرة، وإذا تحدثت فلن تتحدث إلا عن حقائق الحياة، وإذا تآلفت فلن تتآلف أو تتعاطف إلا مع الطبيعة السوية، والنفس المطمئنة المستقيمة.

٦ ـ وفي القصائد رموز محببة، وغموض مقبول، إلا في قليل منها، ولقد ساعد هذا على إضفاء صبغة الجلال على الموضوعات والمعاني وأثارت الذهن، واستشارت العاطفة، للتفكير والشعور بما يريد الشاعر.

٧ ـ وكان للفكرة السبق والأهمية عند الشاعر، فهو في القصائد كلها لا يهتم بشيء كاهتمامه بالموضوع والفكرة، ينتقي الألفاظ، ويأخذ الصور ليبرز الفكرة.

وربما يغوص وراء إحداها أو يستطرد مع أخرى، أو يلح على ثالثة، لذلك نجد ألفاظه تخدم الفكرة قبل أن تخدم أية ناحية أخرى.

وربما كان هذا سبباً في خفوت الموسيقى العذبة التي نلمسها ونحسها عند غيره، وقوة الأسر مع الشعر للقارىء الواعي. ولا يعني أن كل قصائده في الديوان تفتقر إلى العذوبة، وقوة الأسر، وحلاوة الجرس، وإيحاء الألفاظ، فهي متفاوتة، وهناك لمحات ناجحة تأسر القارىء وينفتح لها قلبه قبل فكره.

٨ ـ وشاعرنا لا يقيد نفسه بوزن معين، بل يتنقل بين الأبحر، ويختار ما يناسب لموضوعه.

قد ينتقي لون الموشحات أو غير ذلك أحياناً، ولكنه يحافظ على قواعد الخليل في إطارها الكبير.

وكان لتنوع القافية، والمزاوجة بين أنواع القصيدة أثره الكبير في إضفاء الروح الشابة، والحيوية الطليقة على القصائد.

إن ديوان الشاعر ـ عودة الغائب ـ بصوره، وحزنه، وواقعيته، سؤال ملحاح، وتلهُّف ظامىء إلى الجواب.

جواب يمتطي صهوة الاعتقاد والسلوك والحضور.

* * *

البناء الشعري عند محمد الحسناوي

الشاعر من طليعة الشعراء الإسلاميين المعاصرين، وله تجربة أصيلة في مجال الشعر ـ خاصة ـ والأدب ـ عامة ـ صدر له من الدواوين الشعرية والدراسات الأدبية ما يلي:

١ ـ مجموعة شعرية صغيرة بعنوان «ربيع الوحدة».

٢ ـ ديوان شعر بعنوان «في غيابة الجب».

٣ ـ ديوان شعر بعنوان «عودة الغائب».

٤ ـ ديوان شعر بعنوان «ملحمة النور».

٥ ـ بحث أدبي لنيل شهادة الماجستير بعنوان «الفاصلة في القرآن».

٦ ـ مجموعة قصصية بعنوان (الحلبة والمرأة).

٧ ـ مجموعة قصصية بعنوان (أصوات) بالاشتراك مع عدد من الكتاب الإسلاميين.

وهو ما يزال على الطريق يواصل العطاء، والدرس، والإبداع.

وتجربته الشعرية تمتاز بالعمق والأصالة، وهي جديرة بالدرس والتقويم لتكون صدى يهتدي بها القارىء المسلم، ولتكون إسهاماً في تعميق هذا التيار الذي يواكب الصحوة الإسلامية العامة.

وآخر ديوان صدر للشاعر هو «ملحمة النور» متضمناً أربع عشرة

قصيدة، متباعدة الأزمان، متآلفة الروح والموضوع، فهي تصور طريق الدعوة الإسلامية خلال مرحلتين متباعدتين:

المرحلة الأولى وأطلق عليها اسم «الفجر الأول» وتتضمن القصائد التالية:

ـ الإسراء والمعراج ـ عبد الله بن أم مكتوم ـ سراقة بن مالك ـ يوم بدر ـ أبو خيثمة ـ كعب بن مالك.

المرحلة الثانية وأطلق عليها اسم «الفجر الرابع عشر» وتتضمن القصائد التالية:

هاشم الرفاعي ـ أبو حسان «خمس قصائد» ـ في المأساة ـ لوحة.

وهذه التسمية توحي لنا بالموضوع الذي يدور حوله الديوان.

إنه منذ البداية يعتمد على تاريخ المجتمع الإسلامي الأول، ليأخذ منه لقطات دالة ـ ذات أبعاد في النفس: في حالات الضعف الإنساني وحالات القوة، في واقع الإيمان الذي يتحرك في القلوب ويقلب النفوس على مستوى الأفراد والجماعة، في مجتمع العقيدة وهو يتحول من الجاهلية إلى الإسلام، ليكون على صلة بالخالق القادر العظيم.

هذا هو الفجر الأول يأخذ منه دروساً، يوضح أبعاد الدعوة من خلال الواقع التاريخي، الذي برز فيه رجال ونساء مؤمنون آمنوا واتقوا وصدقوا الله فصدقهم الله، حتى بنوا صرح حضارة عالية راسخة.

وكان اختياره موفقاً، لأنه لم يقعد من التاريخ موضع المؤرخ ولم يسرد أحداثاً، وإنما اختار من التاريخ لحظات تتكثّف فيها الفكرة من خلال الحدث الواقعي، وأخذ نماذج تضم بمجموعها قيماً وحقائق مختلفة تهم البناء الإنساني في مجال النفس والفكر والفرد والمجتمع، والضعف والقوة وكان لهذه الأحداث دلالات كثيرة، حيث تظهر يد الله الرحيمة الحانية التي ترعى مسيرة الدعوة، وخطوات المؤمنين، وترسم لهم معالم الطريق الخالد.

فالإسراء والمعراج ـ بدلالاتها البارزة ـ: تكريم من الله الخالق للإنسانية المؤمنة، إنها دفعة قوية هائلة للثقة والطمأنينة من رب العالمين للإنسان الداعية، إنها صلة جبارة تغرس في كل ذرة من ذرات المؤمن بأن الله العظيم مع هذا المخلوق العاجز إن فتح قلبه صادقاً لربه فلا يخاف ولا يحزن.

لقد كانت توحي بذلك البون الشاسع بين عالم المؤمن الرحب الفسيح المتسامي المستعلي القوي المطمئن، وبين عالم الجاهليين، المشرك الجاهل، الضيق، القلق، المتناقض الخانع المرذول، المستعبد دوماً للحاجة الدانية والمادة الفانية.

أما عبد الله بن أم مكتوم: فهو يرسم أبهى صورة يمكن أن تحلم بها الإنسانية من التكريم والتطمين، والسمو. كان التكريم من الرب الخالق المنعم القدير، للإنسان الضعيف العاجز الأعمى.

كان التكريم من الله العليم البصير، للرجل الفقير الذي لم ير ما يجري ولم يعرف ما حدث، ولم يشاهد ما حوله، ولكن الله كرمه، ورفع من شأنه وقرر له هذا الحق وهو في عجزه وقصوره.

ومع من كان ذلك؟ مع أكرم الخلق على الله، مع رسوله محمد ﷺ، وكان التكريم آيات تتلى، وستظل تتلى رمزاً لهذا التكريم الذي لم تر البشرية مثيله ولن ترى بغير هذا الدين أبداً.

وكان الشرط الوحيد، والميزان العادل في ذلك، العقيدة التي تسلح بها الرجل، فسما بها فوق موازين الأرض كلها، وعلا على البيض والسود، القادة والزعماء، الأغنياء والأبطال، لأنه الصادق عند الله، المؤمن الذي بايع الله.

لقد كانت حادثة ابن أم مكتوم إعلاء لقيم العقيدة والإنسانية معاً، وإعادة الجاهلية إلى مكانها المرذول لأنها تنكبت طريق الإيمان.

هكذا تمضي القصائد، في اقتباس صور ذات دلالات عميقة في مجالات التطبيق العملي لشريعة الله.

ثم يترك الشاعر للسامع أن يستعرض هذا التاريخ العظيم خلال قرونه الطويلة، وعبر مراحله المتتابعة وما وصل إليه من فتوحات في العلوم والحضارة والبلدان.

ويصل إلى الفجر الرابع عشر، بعد أن خبا الضوء وتكالبت قوى الشر من جديد لطمسه، وإطفائه.

وأراد أن يصل بين الفجر الجديد والمنبع الأول، وبين الفجر الرابع عشر، وكلاهما من ذلك المورد العذب، وكلاهما من قبس النبوة ومشكاتها الوضيء. وبهذا يوحي بالاستمرار لموكب الإيمان رغم الصعاب.

لذا نراه يأخذ نماذج ذات دلالات:

لوحات من الجهاد بالسيف والقلم واللسان، وصور تختلط فيها ألوان الصبر على التعذيب، والصمود أمام شراسة البغي.

يسقط شهداء، ويكبل أحرار، وتكتم أفواه، ولكن قافلة الإيمان تظل في سيرها المتواصل.

إن هذه المعالم التي اختارها الشاعر، بسموها، وإشراقها، وآثارها العظيمة، هي التي جعلته ينظمها في عقد يسميه «ملحمة» لأنها من معين الجهاد، ومن ملاحم الإيمان، وتظل شاهدة على عظمة هذا الدين وروعة بنائه.

وهي ملحمة بروعة التضحيات وضخامتها، وصدق الجهاد وديمومته، وثبات المؤمنين وصدقهم، واستمرار القافلة النورانية في سيرها عبر الأهوال والمكائد والصعاب.

* * *

ومن خلال هذه القصائد نقف لنتلمس بعض الخطوط الواضحة في بنائها وطريقة سبكها.

نقف عند القصيدة الأولى «الإسراء والمعراج» لنتبين بعض الملامح الفنية للبناء الشعري الذي اختاره الشاعر، لهذه القصيدة، ولكثير من شعره أيضاً.

وحادثة الإسراء والمعراج حادثة معروفة للمسلمين، ونكتفي هنا من أجل الدراسة التأكيد على ما يلي:

١ ـ كانت حادثة الإسراء والمعراج في السنة الثانية عشرة من البعثة[١] وكان المسلمون في محنة، يجاهدون في سبيل الله بالثبات والصبر، والبيان للناس وهم مستضعفون من الطواغيت الكفرة.

٢ ـ كان الإسراء والمعراج، ابتلاء وتمحيصاً، وقدراً من قدر الله، فيه العبرة لأولي الأبصار، وهدى ورحمة للمؤمنين، إذ كان في معناه الأسمى صلة القوي القاهر بالرسول المختار، صلة التطمين والرحمة والرعاية وسط الطغيان الجاهلي، والجبروت الباغي، فأي أنس وأي رحمة أبلغ من هذه؟ وأي ثقة وأي اطمئنان أرسخ من هذا؟ لذلك كان فيه ثبات لمن آمن بالله وصدق، وتحدٍّ للطغاة وحجة عليهم، فلا عجب بعد ذلك أن نرى أثر المعراج زيادة في اليقين والثبات والصبر عند المؤمنين، وردة للضعفاء، ولذوي الإيمان الهش، وكما كان رد الكافرين بالإنكار والاستهزاء، كان رد الصدِّيق أعمق رد للمؤمنين: «والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك؟».

مع القصيدة:

القصيدة تشبه إلى حد كبير في نسجها وبنائها ـ القصة المتكاملة ـ من حيث تسلسل الحوادث وترابطها، ورسم الشخصيات، وترتيب الأفكار.

---

(١) هناك روايات كثيرة عن زمن وقوعها ويبدو أن هذه الرواية هي الأرجح والله أعلم.

لهـذا نراه يبدأ من قدوم جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومعه البراق الذي حمل رسول الله صلوات الله عليه وسلامه ـ إلى بيت المقدس، وها هو البراق يحط على ثرى مكة:

حـطّ البـراق علـى ثـرى البطحـاء والليـل يضـرب خيمـة الظلمـاء

ولا بد من رسم صورة للمكان وتحديد للزمان «والليل يضرب خيمة الظلماء» مع توفر الانسجام بين البيئة والصورة، فالليل يضرب خيمة، لأن الخيمة من مألوفات هذه البيئة.

أما جو مكة، وما يدور في مجتمعها من اعتقاد وأفكار:

حـط البـراق علـى بسـاط جهـالـة سـوداء قـد أغفـت علـى شحنـاء
وعلـى مفـاخـر مـن بقـايـا يعـرب تُـذرا وتُنفـخ فـي لهـى الشعـراء

ولا ينسى إبان رسم هذا الإطار الزمني والمكاني والفكري أن ينسق بين أطراف الصورة، فالزمن في الليل المظلم، والمكان: تملؤه جهالة سوداء، انسجام في الوقت والفكر، وظلمة تحيط الجميع.

وما دامت الحوادث تجري على أرض مكة، وعلى بطحائها في ذلك الجو الصحراوي ـ تقريباً ـ لذا كان الليل، والبطحاء، والخيمة والمفاخر... إلخ... وفي هدوء الليل، وبرودة السحر يطيب للإنسان أن يصغي ويسمر.

ثم يمضي الشاعر ليصف البراق ذاته، ومعجزة قدومه إلى الأرض، فيقربها إلى دنيا الواقع:

حطَّ البراق، كما تحط الطير من كبـد السمـاء لـرشفـة مـن مـاء
أو حبتـيْ قمـح تنـاثـرتـا هنـا فـي سـاح «مكـة» كعبـة الصحـراء

ولكي يصور لنا لهفة البراق لحمل رسول الله ـ صلوات الله عليه ـ يأتي بهذا التشبيه: وأية لهفة، وأية حرقة أبلغ من لهفة الظامىء إلى رشفة الماء، أو الطير الباحث عن الغذاء.

ثم يبين مكانة مكة ودورها في العالم ـ كعبة الصحراء ـ لأن الدنيا بلا عقيدة صحراء مقفرة.

ويمضي مع الحادثة: فالبراق يأتي معه جبريل ـ عليه السلام ـ وهو الرسول الأمين بين السماء والأرض، يحمل الخير والهدى للإنسانية.

ماذا يرى جبريل في أصنامها في قرية ضاعت على البيداء

ثم يبدأ تسلسل الحوادث، ومسيرتها المباركة، بترابط وانسجام، ويستفيد الشاعر من تداعي الأفكار، لينتقل من حدث لآخر أحياناً، فمن الأبيات السابقة نرى جبريل رمز الخير والهدى والرسالة، فهو الذي يحمل أمر الخالق إلى الخلق.

ومكة رمز البشرية التي أضاعت طريق الهدى، وضلت عن الخير، لذلك تستقبل بكثير من التأبي والعناد الهدى والرسالة، لهذا فمكة توحي بالأصنام والضياع.

وجبريل يوحي بالبشرى والانشراح، والهدى والخير والاصطفاء:

حتى أتاها ضاحكاً مستبشراً واختصها عن دارة الجوزاء

ثم يتابع الأحداث: يقف البراق، فينفر هيبةً من قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم:

صمتاً براق فما عهدتك نافراً عن بيت إبراهيم ذي الأرجاء

ويتابع الصورة التي لا بد أن توحي بأن إبراهيم أبو الأنبياء، ولذلك فالصلة طبيعية مع بيت المقدس أيضاً الذي سيسري إليه:

كما مثلما شاء الإلٰه مباركاً فلسوف تأتي سيد الغبراء
من سفّه الأصنام في غلوائها فرداً بلا جيش ولا نُصراء
من عاش مسكيناً يتيماً صابراً ليدافع البؤس عن البؤساء

ومن كلمة البراق انتقل إلى الحديث عن نفوره، فيطلب منه السكينة

أمام رسول الله ﷺ، الذي أكرمه الله وأرسله للعالمين وجعله سيد ولد آدم، ثم يتحدث عن رسول الله ﷺ، اليتيم المسكين الذي تلقى كلمة الله، وحمل راية الحق وحده، وأعلن وحدانيته وصدع بها في الدنيا، وسفَّه كل معبود من دون الله، فصار بذلك سيد الخلق أجمعين. لقد صبر وتحمل العذاب، لم يأبه للدنيا والمال فكان فقيراً وظل فقيراً رغم ما جاءه من الدنيا، ليدفع عن الناس البؤس وليكون قدوة للعالمين. وهكذا أضحت مهمة البراق كريمة، ورحلته مباركة من مكان مبارك وإلى مكان مبارك.

سر يا براق به فهذا المصطفى ... في قومه، هذا أبو الزهراء
سر يا براق فأنت أكرم حامل ... لأعز محمول إلى سيناء
سر فيه فوق الظالمين وقل لهم: ... هذا الذي ترمون بالأقذاء

ومع استمرار الحدث، وإضاءة هذا الموقف يستدعي ذلك تذكير الجاهليين بمكانة رسول الله ﷺ التي غفلوا عنها وهو بينهم، فأي خسران ذاك الذي يخسرونه عندما يقفون منه موقف الإنكار والعناد، أو الإيذاء والتسفيه؟.

وأي جهل ذاك الذي يدفعهم لتجاهل مكانته وارتكاب تلك الحماقات؟ وفي الوقت ـ ذاته ـ تسهم الصورة في التقريب بين هذا التكريم الذي ناله رسول الله ﷺ من ربه حين أُسري به، من دون البشر جميعاً، وبين الصورة التي تركها لنا بالطاعة والإيمان والسلوك، والإخلاص وبقية شؤون الحياة للتأسي والاقتداء. وهذه الصورة توضح قيمة المسلم الحقيقية عند الله، في هذا التكريم، وأن قيمته الحقيقية ليست بما يتواضع عليه الناس من مظاهر ومتاع وإنما بما هو عند الله الخالق العليم.

فإذا كان مطارداً، معذباً، فقيراً، يتيماً، موصوماً بأقذع الصفات عند الناس، فليس ذلك مهانة له إذا كان في ميزان الله كريماً مهتدياً، بل هو أسمى وأعلى وأنقى بما يحمل من إيمان، وما يتصف به من صدق وما يعمل من عمل في سبيل الله:

سر فيه فوق الظالمين وقل لهم: هـذا الـذي تـرمـون بـالأقـذاء
هـذا الـذي راودتمـوه عـن الهـدى وَوَصَمْتُمُـوهُ بـأشنـع الأسمـاء
هـذا الـذي طـاف القبـائـل لاجئـاً فـرجَمْتُمُـوهُ بـوابـلِ الحصبـاء
وجـرحتُـمُ قـدميـه حتـى ابتلَّتـا بـدمـائـه، وانهـدَّ مـن إعيـاء
وشكـا إلـى الله العلـيِّ بـلاءَهُ شكوى الضعيف لأرحم الرحماء

هذه الصورة المتتابعة من أذى قريش تستغرق وقتاً طويلاً من حياة رسول الله ﷺ وحياة الدعوة، ولكن النتيجة كانت هذا التكريم والسمو:

فلتـرتفـع قـدمـاه فـوق رؤوسهـم بعـد الهـوان وشـدة الإيـذاء
إن ينبـذوه ففـي السمـاء لـه مـرا دٌ، واسـع، مـن سُـدَّة العليـاء
أو يظلمـوه، فحسبـه نظـر الإلَـ ـه، وعدله الرابي على الفرقاء

فالكون وما فيه من مخلوقات ليس متروكاً بلا رعاية، فالله وراء كل ذرة وحادثة، وهو الموئل الأمين، والمقدر العليم، وحسب المسلم أن يكون له ردئاً وموئلاً ونصيراً.

وانتهى من المرحلة الثانية لتداعي الحادثة، بشكلها الطبيعي، وتسلسلها وترابط أفكارها.

سر فيه حتى «المسجد الأقصى» المبا رك حـولـه واهبـط علـى إيليـاء

وهنا يصل البراق إلى بيت المقدس. والمسجد الأقصى له إشعاعات وإيحاءات، لا بد من إنارتها، فهي:

دار النبيِّيـن الألـى ركـزوا اللـوا ء علـى رفـات الشـرك والأشـلاء
من عهد داود النبي إلى سليمان الحكيـ ـم وآل عمـران إلـى العـذراء

وانتهى من إنارة النقطة الثالثة التي أوحت بها كلمة «المسجد الأقصى» فهي دار النبيين حاملي الحق، والداعين إلى وحدانية الله عز وجل والمجاهدين في سبيل الله.

ثم يتابع الحديث، وتستمر الحوادث مرة أخرى:

حط البراق على صعيد القدس مز هـوّاً يُجيـل الطـرف فـي الأنحـاء
لا حـس إلا وقـع أقـدام الـرسـو ل يحفـه جبـريـل فـي الظلمـاء
دلفـا إلـى المحـراب سنَّـة زائـر وتبتـــــلا للَّـــــه ذي الآلاء

وبعد أن ينتهيا من الوقوف بين يدي الله عز وجل بخشوع، حيث لا حس ولا حركة: «أرأيت كيف خفتت الأصوات، وهدأت الأجراس وترهفت الأسماع، ورقت الألفاظ للإيحاء بمعنى الخشوع والصلاة؟». ثم يتابع مسيرة الأحداث، وتبدأ مرحلة العروج بما فيها من تكريم وقدسية، وعظمة:

وأتـاهمـا المعـراج يـوطـىء متنـه مَن علّق الدرجات في الجوزاء؟

والعروج يوحي، ويستدعي إضاءة هذه اللحظة أيضاً:

فهي هنا تدل على الإعجاز والقدرة الخارقة، ولكنها ليست بدعاً فالله خالق الكون ترك لنا آيات ناطقات حولنا وفي أنفسنا، أفلا نعجب من هذه الآيات؟ أفلا نتدبر أمر السماء، والأرض والحيوان والنبات والأنفس قبل أن نعجب من طريقة العروج؟

الله علقهـــا وشـــد حبـــالهـــا مـــن غيـــر صـــاروخ ولا خبـــراء
الله علقهـــا وأمســـك تحتهـــا أرضـــاً مطـــوَّقـــة بكـــل سمـــاء
الله علقهـا وأمسـك حـولهـا الـد نيـــا بـــلا عمـــد ولا إرســـاء

وتستمر الأحداث مع لحظة ـ أخرى ـ مشعة، هيأ لها الإحساس والنفس والفكر معاً، ويبدؤها بـ «صُعداً» بكل ما للكلمة من إيحاء: جلال القدرة، والارتفاع والسمو، والإرادة الإلهية المدبرة التي تقف وراء كل حدث، والدلالة على هذه القوة الخفية القادرة:

صعداً أبا الزهراء فوق ظلالهم واهنـأ فـدربـك طـافـح الأضـواء
هذي النجوم الزهر جئنك سمراً فاسحب على السُّمار ذيل عفاء
واعرج نطف بالأنبياء، فعندهم نصـح الهـداة وخبـرة الحكمـاء

كم كافحوا الطاغوت في جبروته ... وتـدرَّعـوا ببطـولـة الشهـداء
كم أخرسوا الكفر البهيم وحطموا ... للشـرك مـن صنـم ومـن خيـلاء
وإليـك قـد دفعـوا اللـواء تيمنـاً ... فيمـا حبـاك الله مـن سيمـاء
لمـا اصطفـاك على الأنـام محمـداً ... لمـا دعـاك بـأحسـن الأسمـاء
لمـا بعثـت إلـى الأنـام جميعهـم ... لا فـرق بيـن العـرب والعجمـاء
لمـا رقـى بـك فـوق آفـاق الـورى ... فـي ليلـة المعـراج والإسـراء

فالنجوم، والأنبياء، والكون، كله مخلوقات متآلفة تسير على درب الحق، في هذه اللوحة الرائعة، وتبدو كلها في مهرجان وفرحة لهذه المكرمة الإلٰهية.

وتبدأ لحظة الإشعاع الأخيرة من ذكر «الكون والأنبياء» فيعود منها إلى توضيح طريق الأنبياء، ويرسم لوحات سريعة نيرة، لكفاحهم وجهادهم ضد الكفر، فيظهرون كقافلة واحدة، وركب مستمر بدأه آدم عليه الصلاة والسلام، وسيظل إلى يوم الدين، راية إيمان بيد آخر مؤمن على وجه الأرض.

ويركز الإضاءة على شخصية بطل هذه الحادثة رسول الله ﷺ فيكشف عن مكانته بين أبناء القافلة: فهو المصطفى من الله المبعوث للعالمين كافة، المقدم بين الأنبياء، المختار يوم الإسراء والمعراج. ونرى أن الشاعر قد حشد جزئيات جليلة تدل على العلو والمكانة، ليهيىء الحس والفكر للحظة التي ينعم الله فيها على رسوله ﷺ بالقرب، كي تأتلف الصور وتتناسق، فهي مقدمات ونتائج وتتابع بين الأحداث.

هذه المكانة كانت نتيجة طبيعية، وحقيقة من حقائق الوجود المألوفة ككل اللحظات التي أنارها من حياة رسول الله ﷺ في هذه القصيدة، بطريقة التسلسل، أو التداعي، من البيت «وإليك قد دفعوا اللواء» إلى.. «لما رقى بك فوق آفاق الورى»، ويستمر الحديث أخيراً في صعود لا نهائي، لا تحده غير قدرة الله العزيز القدير، في هذا المكان المقدس، والسني الطاهر:

صعداً أبا الزهراء حتى المنتهى ... مـــن ســـدرة وجـــلالـــة وبهـــاء
واسجـــد لـــربـــك شـــاكـــراً آلاءه ... واســـأل لتعطـــى غـــايـــة الأشيـــاء

والإنسان ـ النبي والناس ـ في هذا الفيض الغامر للقدرة والرحمة والرعاية والعون والتكريم، مع ضعف الإنسان وعجزه، حقيق به أن يشكر ويسجد لله طاعة وتقرباً.

والله صاحب المنن، كريم معطاء، لهذا يسأله الطائعون ويتقرب إليه المؤمنون، والله عفو كريم، رزاق رحيم.

* * *

إن هذا العرض لبناء القصيدة عند الحسناوي دل على نوع من التنسيق والترابط بين الأحداث والبيئة والصور التي صاغها الشاعر عن هذه الأحداث، وكذلك فهناك تسلسل طبيعي بين هذه الأحداث من ناحية وتسلسل طبيعي في الإيحاءات النفسية التي رافقت الأحداث أيضاً. والقصيدة بهذه الميزة نجحت في إيجاد الوحدة المطلوبة والتي تجمع بين الفكرة من ناحية والتعبير من ناحية أخرى، وتبرز الحدث والأثر النفسي أيضاً.

وكان الشاعر يعتمد على إيحاءات بعض الألفاظ، لتطوير الحوادث، واستمرارها، بحيث تظل في تسلسل وترابط، وكان يعتمد في ذلك على اختيار بعض الألفاظ التي تساعده على هذا التطوير.

لقد استطاع أن يجعل قصيدته هذه قصة مترابطة، وأن يجعل منها موشاة بكثير من الإيحاءات التي تزيد في إيمان القارىء، وتزيد من ثقته بهذا الدين.

واستطاع أن يوفق في تقسيم القصيدة إلى لمحات متتابعة، وفي كل واحدة يستغرق في إضاءة جوانبها معتمداً على ركيزة في كل مقطع (كلمة أو إشارة تاريخية) لتشع وتوحي، وتساعد على متابعة الأحداث وتطورها.

ونستطيع أن نعدد بعض هذه الألفاظ في اللمحات المتتابعة: «البطحاء، الظلماء، مكة، نافراً، سيد الغبراء، الظالمين، المسجد الأقصى، المعراج، صعداً...».

ومع هذا فقد حافظ على الانسجام اللفظي والمعنوي، بحيث ترق الألفاظ أو تتفخم، وتعذب الموسيقى وتهدأ، أو تصطخب وتتأجج تبعاً للموقف.

لقد استطاع الشاعر أن يعرض لوحة من تاريخنا العظيم بصورته الحية، وبحرارة الواقع، في إطار موحٍ ونغمة حلوة.

* * *

مع ديوان (شجون غريب)
لأبي عاصم القاري

ديوان جديد من مجموعات الشعر الإسلامية يخرج إلى عالم النور، ليزيد بناء الأدب الإسلامي لبنة وهو بعنوان «شجون غريب».

والشاعر الذي أودع هذا الديوان بعض نفثاته هو «أبو عاصم القاري».

وكما أنني لا أعرف شيئاً عن الشاعر، غير ما سجله في هذا الديوان، فإنه في هذه المجموعة ـ ويبدو أنها الأولى ـ لا يعطينا أية فكرة عن صاحبها، أو عن تجربته في الحياة، ومدى مشاركته في هذا الفن.

بل يترك شعره ليتحدث عنه ـ وكأنه يريد أن يقول: أنا واحد من هؤلاء الغرباء الذين يعيشون بين أبناء هذ العصر، لا يخشون إلا الله ولا يرتضون إلا ما يرضي الله ـ سبحانه وتعالى ـ وإن صورتي في هذا الديوان هي صورة كل الغرباء من المؤمنين، وهي لون من ألوانها التي بدأت تشرق مرة أخرى على العالم من هنا وهناك، رغم اجتياح الظلمة لأرض الإسلام في هذي القرون.

ولهذا كتب في أول صفحة حديث رسول الله ﷺ «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء». وربما كان يحس أن القارىء سوف يتساءل عن الشاعر، ويبحث عمن يعرفه له، فيجيب الشاعر بهذه الأبيات التي وضع لها هذا العنوان: (؟):

وتسألني من أنت؟ قلت: غريب يـؤرقـه شـوق إلـى الغـربـاء
أشـاهـد فـي الـدنيـا صنـوفـاً كثيـرة مـن الخلـق لا يغنـون أي غنـاء
وفي القلب لو تدرين أعجب لوعة أكـابـدهـا نـاراً بغيـر شقـاء
ومـا زلـت فـي لهـف للقيـاه إننـا غـريبـان ينتظـران أي لقـاء

* * *

ومنذ البداية يوضح لنا الشاعر نظرته للشعر، حتى لا نظنه واحداً من الذين اتخذوا الشعر حرفة، لاصطياد الغواني، ودغدغة أحلام الحسان.

ولكي لا نحشره بين الذين يغالون في نظراتهم للشعر حتى يضعوه في درجة الوحي.

لهذا نرى الشاعر ينظر إليه نظرة واقعية: بيان من البيان ـ فيه سحر العبارة وروعة الصورة، وبديع البيان. وهو وسيلة من وسائل الكفاح والبيان عند المسلم، فهو حيناً يغدو شعلة تنير للسالكين بعض الدروب، وتقيم له بعض المعالم، فضلاً عن أنه مورد عذب يروي غلة التَّعب والظمآن بعد عناء السير المضني:

يـا صـ حبـي إن القـريـض شجـى يسمـو علـى أنغـامـه المجـدُ
الشعـرُ ملحمـةٌ وليـس لـه غيـر الكفـاح، وبحـره قصـدُ
هـو جـذوة السَّـاري بحلكتهـا هـو مـورد الظمـآن والشهـدُ
فـي عـالـم الأفكـار تنظمـه عقـداً فيشعـل نـوره العقـدُ
دع عنـك ذكـر الغـانيـات فمـا صلّـى بمحـراب الهـوى مجـدُ

هكذا نظر الشاعر لفنه، وسيلة كفاح وجهاد، وحمل فيه الفكرة بياناً، يخرق بشفافيته حجب الصدور والقلوب ليكلم أعماق الإنسان.

وفي جميع ما يكتب، يظل الشاعر الإسلامي في هذا الديوان غريباً في دنيا الواقع الذي يعيشه المسلمون في هذا العصر، رغم تنقله من موضوع لآخر، ومن موقع لثان. إن هذا التمييز الذي أعطاه الله ـ سبحانه وتعالى ـ

للمسلمين الصادقين ليبدو واضحاً في نغمات القصائد جميعاً، رغم اختلاف ألوانها وطعومها.

وهناك أفكار تطرح، وشعارات ترفع، وأحداث تجري، وصراعات تدور، وآمال تلتمع، والشاعر طير يتنقل بينها ويصدح ليعطينا صورة واقعية عن عالمنا المعاصر.

ففي قصديته «رجعي» يوضح ذلك الافتراء الذي يحمله أعداء الإسلام للمسلم، ويتهمونه به دائماً؛ في وقت يفتتن فيه الناس بشيء اسمه التقدم، لم يجدوا منه غير المظاهر المادية فقط. يقول الشاعر في ذلك:

أنـــا رجعـــي لحقِّـــي ليـــس يثنينـــي رجـــوعـــي
كـــافـــر بـــالـــذلِّ، إنـــي لســـت أرضـــى بـــالخنـــوعِ
ســـائـــر للقمـــة العليـــاء فـــي عـــزم مُـــريـــع
أعشـــق النـــور فيســـري فـــي دمـــائـــي وضلـــوعـــي

* * *

أنـــا رجعـــيٌّ لـــديـنـــي لســـت عبـــداً للحضـــارة
ليـــس يخـــدعنـــي بـــريـــقٌ إننـــي أخشـــى دمـــاره

ثم يعبر عن شخصية المسلم الذي يتطلع إلى المجد الحقيقي، فيحطم أغلاله ويسعى إلى العلا:

إذا اشتعلَتْ دربي الغداةَ مشاعلاً سماويةَ الأنوار حطَّمْتُ أغلالي

هذا الأمل لا يتحقق إلا بالهدي الإلَهي، ثم يصور مشاعره وشجونه ويوضح ما يكابد من عواطف:

ليـس وجـداً فـي مهجتـي يتلظَّـى بل لهيب من موجعات الشجونِ
وانتفـاضـات كـاسـر مغبـون لا ارتعـاشـات عـاشـق مجنـون
أنـا مـن أشعـل البِطـاح لهيبـاً فـاستطـارت سمـاؤهـا بـالهـون
وحشـــرْتُ الطغـــاةَ قطيعـــا والتهمْـتُ العـدوان كـالطـاعـون

أنـا مـن حـوَّل الجحيـم جنـانـا وأذاق الإنســان طعــمَ اليقيــن

فإذا كان هذا دور المسلم ـ وهذا عطاؤه، فكيف أصبح الحاضر بعد ذلك المجد الزاهر؟ إنها صور تدعو للعجب والحسرة، يرتد الناس، ليعبدوا أصناماً من دون الله ـ عز وجل ـ ولكن أصنام اليوم غيرها بالأمس، إنها نظم وتشريعات جاهلية. إنها تقاليد وعادات تخالف شرع الله، إنها مبادىء وأفكار وضعيّة، إنها عصبيات ضيقة. فنراه يقول بعنوان «الأصنام»:

كُهّـانهـا مـلأوا البـلاد كفـاحـا لعبـــادة الأصنـــام دون اللَّـــهِ
مـلأوا المسـامـع ضجـة ونـواحـا سحـروا العيـون بـزيفهـا التيَّـاهِ

ثم يقول:

إن كـان قـد ولَّـى زمـانٌ غـابـر «هبـلٌ» بـه قـد دِيـسَ بـالأقـدامِ
فـاليـوم قـد نصبـت لـه أعـلامـه قـد رفـرفـت فـي عـزة وسـلام
آكـامنـا البلهـاء كـم صنـم بهـا سجـدت إليـه بهيمـة الأنعـام
الشـرك لا يمسـي حـلالاً طيبـاً إن زخـرفـوه بـزينـة وكـلام

ولا بد من يقظة، ينهض فيها المغفلون والخائفون ليحطموا هذه الأصنام:

يـا معشـر البلهـاء هـلا يقظـة ممـا احتـواكـم فـي بحـار العـدم
هـلا كـإبـراهيـم يعمـل فـأسـه ويـدك بـالإيمـان هـام الصنـم

* * *

ومن هذه الأصنام ما نصبته الشيوعية التي أرادت من الإنسان أن يغدو آلة بلهاء يكفر بربه، ويحطم قيمه، وهي وباء خطير، لهذا فالحرب مع الشيوعية جهاد لا يتوقف:

يـا دعـاة الكفـر إمـا نلتقـي فـي بحـار المـوت أو نُحتضـرُ
أوقـدوا النـار فـأنتـم أهلهـا واشحـذوا السكيـن فيكـم تُكْسَـرُ
يـا بنـي الإسـلام فيكـم حـرهـا فـي ربـاكـم نـارهـا تنتشـرُ

أتركوا الحلم على أعقابكم ليس يجدي في لظاها النظر
ليس للمنجل إلا بطشةٌ فادفنوه قبل أن تندثروا
إن للبغي دواءً ناجعاً عزمةٌ مؤمنةٌ لا تَغْتَفِرُ

وحين ينظر إلى عالم المسلمين، يهوله ما يرى ويدمي فؤاده: مِنْ ذُلٍّ يحكم أرض المسلمين، وغفلةٍ وخنوع واستسلام فيقول:

يا لهذا الزمان يلبسني القهر وأهله البائسون قد كبّلوني؟

ويقول في بيت آخر عما حدث في فلسطين وغيرها من بلاد المسلمين:

ما لتلك القرود تلهو ببابي والخنازير تستبيح عريني؟

ولكنه في قصيدة أخرى نراه يدعو المسلم لأن يوسع من نظرته ويستيقظ على دنياه ليرى ما يحاك له، ولهذا يخاطب المسلم أينما كان مخاطبة الأخ لأخيه ـ لا تمنعه المسافات والحواجز المصطنعة. . .

وفي مناسبة الحرب بين الهند وباكستان يقول في قصيدة دعاء:

يا أهل باكستانْ يا إخوة الإيمانْ
إنا على عهدٍ قد صانه الديَّانْ
نفسٌ مُوَحّدةً وسواعدٌ وسِنانْ

ويرى أن نظرة المسلم للوطن، والأهل والعشيرة، تختلف عن نظرة الناس، فلا يقدس أرضاً لم يقدسها رب العالمين، ولا يتمسك بموطن يملؤه الكفر، بل وطنه هو وطن العقيدة، وأهله هم أهل الإسلام:

هجرت عشيرتي وتركت داري وما علَّقتُ في الأوطان رسْما
وما قحطانُ أو غطفان أهلي فإن وشائجي من ذاك أسمى
أنا ابنُ المِلَّة السمحاء إني رضيت بنهجها وطناً وقسما

* * *

ثم يصف لنا نموذجاً من المجانين الذين فُتنوا بالمدنية الغربية فراحوا يركضون وراء الجنس والمظهر فيقول:

عصفَ الهيامُ برأسِه المسكينُ فإذا به بعد الهوى مجنون
القلب منه يكاد يقفز حسرةً إما تولَّتْهُ الغداةَ جفونَ

ويمضي في وصف شباب العصر في ضياعهم وابتعادهم عن منهج ربهم، بعد أن استسلموا لأيدي الفاسدين المفسدين من الفنانين، فيقول عنهم:

يا شباباً أسدل الذلُّ عليه ثوبه حتى خسرناه شبابا
وضعَ العِقْدَ على مِنْخَرِهِ ما أرقَّ الجيدَ فيه والإهابا
يا جمالَ الشَّعْر في مَفرِقِهِ قد أفاض العِطر فيه والخِضابا

ولو نظر إليه الناس نظرة عادلة لرأوا فيه:

أين عين الناس لو تبصره وترى الخزيَ عليه والخرابا

ثم يرى أن الأمة التي تحوي كثرة من هؤلاء يهددها الانهيار، والأخطار لهذا يصرخ بهم ويحذرهم:

يا شباباً فضحوا أمتهم وأتوا في السُّخْفِ أشياء عُجَابا
ضاع سوقُ الغيدِ من رقتكم وتقطَّعْنَ عويلاً وانتحابا
نالتِ الأعداءُ من أمتكم ليت شعري كيف تُحْرونَ جوابا

وحين يبلغ الشباب هذا الحد من التخنث والهزال، يعجزون عن حمل المسؤولية ويتساقطون من الرعب، لا سيما عند المحن:

كيف حدُّ السيفِ لو تقرَبَهُ كيف وقْعُ الحرب هولاً وعذابا

ولقد عرفت أمتنا صورة من هذه المآسي التي وقعت فيها في هزيمة حزيران، عندما كان أمثال هؤلاء الشباب ـ الذين تربوا على يد المغنين وبين كؤوس الخمر، ثم جاؤوا يقودون الجيوش ويخططون للمعارج وكانت قيمهم

وآمالهم في ملذات محرمة ـ يقضون الليل سكارى مع صوت أم كلثوم، حتى أصاب هذه الأمة ما أصابها:

أرأيتَ الأشلاءَ في كل بيت ... من فلسطينَ أمْ ترى أوهاما؟
وثكالى على الطريق تناثَرْ ... نَ وما يدرين يقظةً أو مناما
كمْ صغيرٍ على الحراب تلوَّى ... كمْ فتاةٍ مزَّقوها انتقاما
كمْ عجوزٍ تحت السنابك مُلْقى ... عانَقَ الأرضَ وجهُهُ اسْتسلاما
ثم تختال في الكنانة بومٌ ... تُنْشِدُ (الحبَّ) و (الهوى) و (الغراما)
«كوكبُ الشرقِ» والديارُ حريقٌ ... تُرسلُ اليومَ لليهودِ السَّلاما
«كوكب الشرق» في الدما أفيونٌ ... جعل الناس تعبُدُ الأصناما

ثم يلتفت الشاعر ليخاطب الإنسان الذي سلخته المدنية المعاصرة من إنسانيته وكرامته حتى أضحى هيكلاً فارغاً:

هيكلٌ أنتَ، أديمٌ فارغٌ ... أحرقوكَ اليوم حتى لا تقوما

ويهيب به أن يحطم السور الذي أحاطوه به، والسجن الذي حبسوه فيه:

أيها الإنسان حطِّمْ سجنَهم ... هاتِ كفيك لنرتاد النجوما

ويدله على طريق النصر: طريق الكرامة الإنسانية الحقيقية، والسعادة:

أعطني اليوم فؤاداً مؤمناً ... نجعل الدنيا وما فيها نعيما
أعطني اليوم حساماً مسلماً ... نقلب الدنيا على البغي جحيما

ويخاطب المسلم، وهو يمثل الرجل المتميز عن بقية الناس بإيمانه وسلوكه، والمرأة المتميزة عن النساء، فيدعوهما إلى تفجير النور المبصر من جديد ليغمر الكون ويظلل الحياة الإنسانية:

يا أخا الإسلام فجِّرْها يداً ... تحمل الحق بكفٍ من حديدِ

والمسلم الصادق هو المؤهل لهذه الأمانة لأنه موصول القوة بربه سبحانه وتعالى الذي يمده بالعزة والتأييد:

أنــت يــا مسلــم أقــوى منهــمُ   حطِّــمِ الأصنــامَ وارْقَ القِمَمــا

والمسلمة اليوم تنظر إليها العيون بغيظ لأنها تستعصي على الطغاة والمفسدين، وتستكبر على ذلك الرجس الأثيم، وتبقى طاهرة مؤمنة، لهذا يحذرها الشاعر من دسائسهم ويحدد لها طريقها، ويحثها على الثبات والوعي:

يا مسلمة:

يبنــون ســوقــاً لِلنَّخــاســة تُستبــاحُ بــه الجــواري
قــد زخــرفَتْــهُ مصــانــعُ «المــاســونِ» فــي مُهَــجٍ قِفــار
تُسْبــى بــه فــي مــوكــبِ العُميــان صــاحبــةُ الخِمــار
ولتُفْقَــأِ الحَــدَقُ المَغِيظَــةُ مــن قــريــشٍ أو نِــزارِ

يا مسلمة:

فلتــرْفُضــي فــي عــزمــةٍ مــؤمنــةٍ كــلَّ دَعِــيّ
ولتطــردي النخــاسَ مــن بيــتٍ بنــاه لــك النبــي
لا تَتْــرُكــي الأركــان يهــدمهــا لتخلُــو لِلْبَغِــي
لا تتــركــي الأزهــارَ يَحْطِمُهــا بقســوةِ «قُــرْمُطَــي»
فــالـــدارُ آوتْنــا معــا
وزهــورُهــا أسكنتهــنَّ الأضلعــا
وغصــونهــا غنَّــتْ بقلبــي ألــف تــرتيــلٍ شجــي

* * *

ويشعر بأن للدعاة دوراً مهماً في بناء المجتمع الإسلامي الواعي ولكنه يراهم وقد نكل بهم الطغاة، فيقول في قصيدة «أين»:

يــا ســائلــي أيــن البنــودْ   هــلا ســألْــتَ ذرى المشــانِــقْ

ولا غرابة أن يصيب الدعاة ما أصابهم فأمة العرب يلفها ليل مظلم:

ماذا أرى في الكون؟ ضجَّةَ ظالم؟   وهتافَ مهووس وفرحةَ جاني؟

وأنيـنَ مظلـوم، وآهـةَ بـائـسٍ وتـوجُّـعَ الثكلـى مـن العـدوان
وجموعَ شعبٍ هائم فوق الثرى يشكـو مـن الأعـداء والخِـلان
وأرى بنـود العُـرْبِ نُكِّسَ هـامُهـا وأرى يهـودَ تجـول فـي الميـدان

وهذه الأبيات جزء من قصيدة طويلة بعنوان «نونية» يتحدث فيها الشاعر عن مأساة المسلمين، ويصور لنا واقعهم في كثير من الشؤون بعد أن ابتعد الناس عن شرع الله عز وجل، حتى كأن الشاعر يصور غربة المسلم في هذا العصر:

إنـي غـريـبٌ لا يـذوقُ حيـاتَـهُ إلا مـع الغُـربـاءِ فـي «الإيمـان»
وأحس أني في جهنـمَ إن هَفَـتْ نفسـي إلـى «خَمَّـارة الشيطـان»

ومن حول الدعاة طغاةٌ وجهلةٌ، وأمة تلهو، ترى كيف ينزل التنكيل بالمؤمنين فلا تتحرك ولا تستنكر، بل تغرق في عبث ومجون:

الجـاهليـة لا تُهـادنُ والـردى فـي كفِّهـا هـو غـايـةُ البـرهـان
لـن يستـريـحَ لهـا فـؤادٌ جـامـح حتـى تَعُـمَّ الأرضَ بـالكفـران

وهذه سنة الله في الناس أن يدوم الصراع بين الحق والباطل حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وليس على المسلم إلا الصبر والجهاد، وحسبه ما ينال من رضوان الله في الآخرة، ونصره ـ إن قدر الله له ـ في الدنيا:

فجِّرْ عذابك يا أخي في دعوتي غَضَبـاً يـدمِّـرُهُـم ـ بكـل مكـان
أرسل بنودَك يا أخي في دعوتي وابعـثْ صـواعقهـا بغيـر تـوان
حتـى يسبِّـحَ آمنـاً فـي ظلهـا مُستَضْعَفُـونَ بسـائِـرِ البلـدان

وينظر إلى الناس وهم ينغمسون بالترف، ويطمئنون إلى الحياة الدنيا ويغرقون في ملذاتها وينسون أن هذه النعمة من رب العالمين تستحق الشكر، والطاعة، ولا يكون ذلك إلا بتجنب المعاصي والتزام منهج الله في الأرض.

ويرى ـ أيضاً ـ كيف يستشري الفساد بين الناس، وتتعاظم البلية، والأمة سادرة لا تفيق على خطر قادم، فيخاطبها قائلاً:

يـا نـائميـنَ علـى وسـائـدِ غفلـةٍ حجبَـتْ نعـومتُهـا لظـى النيـرانِ
جثمَـتْ علـى أنفـاسكـم فـي رِقَّـةٍ فـإذا القلـوبُ أسيـرةُ الأكفـانِ
عَميَتْ وصمَّتْ ثم هامت في الهوى وتمـرَّغَـتْ فـي مُـوحِـلٍ فتَّـانِ
صبراً أُسارى النوم بعضَ زمانكم ستفيـقُ أجفـانٌ علـى الحَـدَثَـانِ
وتـرون أيـامـاً حُبـالـى بـالتـي أسكنْتُمـوهـا عـالـمَ النسيـان

وحين يرى الناس يركضون وراء المادة ـ وتغشاهم داهية المظاهر ومدنية الجنس، يعلن عن تميّزِ المسلم عن هذا المجتمع، ويتخلص من الانفصام النكد بين الدين والحياة فيقول:

لكننـي يمَّمْـتُ شطـرَ مـدينـةٍ ديني ووجـدانـي بهـا صنـوان
الـديـن فيهـا والهـوى لمحمـد أعظـمْ بهـا للمـرءِ تجتمعـانِ
دينـي هـوايَ ومـا سـوى أَنْـواره أرْنُـو لـه فليشهـدِ القمـران

ويجول بنا الشاعر جولة سريعة في المجتمع يلتقط من هنا صورة ومن هناك حادثة حتى نكاد نحس بأنفاس الناس على اختلاف مشاربهم، يدخل إلى بيوتهم ومجتمعاتهم ليرينا عللاً وأدواء فتاكة نخرت قلوبهم وأكلت ضمائرهم، حتى أصبحوا غثاء كغثاء السيل على كثرتهم.

وبعد تجواله الطويل يلتفت إلى المشايخ والعلماء الذين يعظون الناس فيرى قلة منهم من الصالحين الأتقياء الذين يستحقون أن يكونوا هداة أتقياء، وقدوة ينتفع الناس بعلمهم، ويتأثرون بسيرهم ومواعظهم.

أما الكثرة فقد أكلت الدنيا أرواحهم، وأبقت مظاهر فتانة عليهم من رونق الحديث، وجمال الهيئة. إنهم أدعياء تهالكوا على الدنيا، وتساقطوا عند الأعتاب فنزع الله منهم المهابة:

أستغفـرُ الله مـن حـالٍ أُكـابـدُهُ هـو العليـم بـإعـلانـي وإسـراري
العيـن أرْمَـدَهَـا فيمـا تشـاهـدُهُ ضَعفُ الهُداةِ وصَوْلُ الفاجرِ الضاري

وإذا افتقد المجتمع قادة مخلصين من علماء أتقياء صالحين، وقدوة يحتذى بهم، سار المجتمع إلى الهاوية، بعد أن تجرفه المظاهر والإغراءات.

وفي مقابل هذه الصورة، ينقلنا لنعيش مع الأخوَّة الطاهرة التي يلتقي فيها المسلم بأخيه على طاعة الله ومحبته، يفديه ويؤثره على نفسه في كل مكرمة:

نفسي فداءُ أخٍ بالنفسِ فدَّاني وسكنْتُ مبتهجاً في قلبِهِ الحاني

وما دام الرباط بينهما هو رباط العقيدة، فسيلتقيان ليجابها كل الصعاب صفاً وحداً، كأنه البنيان المرصوص:

ويدي على يدهِ أَخَوانِ في الدرْبِ
نجتازُ ما صنعوا من حالكٍ صعبِ
فإذا بنيرانِ الدُّجى وجهنمِ الخَطْبِ
بَرْدٌ وإنْ جاؤوا بكلِّ الشرقِ والغربِ

وبعد فهذه لمحات من هذا الديوان الذي نشرته دار الأرقم في الكويت، على صغر حجمه الذي لم يتجاوز ثماني عشرة صفحة ومئة من الحجم الصغير، ومع هذا فقد كانت قصائده ومقطوعاته نبضات قلب يشتغل بالإيمان، يترك النفس لترسم على السطور جراحات اكتوت بها، أو مشاعر تتأجج بالعزة وهي تأنس بربها، أو تثور مزمجرة وهي ترى الناس يرتكسون عن عبادة الله، ويهلكون في جاهلية خبيثة، تغلفها مظاهر خادعة.

يئن ويتوجع، يتأمل ويشدو، يثق بالله وينتصر للحق، ويزأر ويدعو الشباب الإسلامي للانطلاق مما هم فيه من جمود لإقامة شرع الله في الأرض وتحطيم الطغيان.

إنها شجون صادقة، ليس فيها أثر للتكلف أو الغلو، في قوة سبكها، وفصاحة عبارتها، في أسلوبها الفخم، وعباراتها الجزلة، أو في واقعيتها، ورقة ألفاظها وسهولتها. في كل ذلك بقيت شجوناً لغريب، يرضى ويطمئن

إلى غربته في عالم يموج بالإثم والطغيان، ويندر فيه الصادق المؤمن.

وما دامت هذه المقطوعات والأبيات قريبة إلى النفس الصافية، فستجد لها صدى محبباً في قلوب المؤمنين تلمس جراحهم، وتؤجج مشاعرهم، وتذكرهم بالأمانة العظيمة التي كلفوا بها فيزدادون يقيناً وطمأنينة.

وما دامت هذه المقطوعات تنبع من الفطرة السوية، لا تشدد ولا تغالي، بعيدة عن التكلف والتزلف، ولا يغر صاحبها ما يملأ هذه الدنيا من أزياء براقة، وصرخات طنانة، بل جاءت تعبر عن صدق الأمانة، وصدق التجربة، فإنها ستكون قصائد إسلامية.

ولا يجرح من روعتها أن يستقي شاعرنا من آخرين، أو يلتقي مع شعراء سبقوه في المعاني والموضوعات، أو في طريقة النظم. وليس ذلك عيباً لأنها النفس الإنسانية التي تعبر عن صدق وتستقي من منبع الفطرة الواحدة، وهي الخواطر التي تتوارد، والموضوعات التي تهيمن على الواقع.

وما دام لشاعرنا هذه الشجون، وهذه النفس الحساسة التي تفيض بالمعاني والصور المؤثرة، فإننا معه على الدرب، وإننا وإياه على موعد ـ إن شاء الله ـ في آثار أخرى.

* * *